

د. فريد الأنصاري

الأخطاء الستة
للحركة الإسلامية بالمغرب
انحراف استصنامي في التصور والممارسة
حقائق تاريخية ومقولات نقدية تنشر لأول مرة!

.....

الكاتب :	الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب
الكاتب :	د. فريد الأنصاري
الناشر :	منشورات رسالة القرآن
الطبعة :	الأولى 2007 – 1428
الإيداع القانوني :	2007/0100
الطبع :	الكلمة للطبع والإشهار
العنوان :	الإسماعيلية 2، عمارة رقم 42، مكناس
الهاتف :	035 525 999

بسم الله الرحمن الرحيم

إِهْدَاءً.. بَلْ سَلَامٌ!

أما هذه الورقاتُ فهي لكم أنتم!
إِنِّي أَشَاهِدُكُمْ وَأَنْتُمْ تُؤَلِّدُونَ مِنْ رَحِمِ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ..
عَبْرَ مَخَاضِ هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ!
إِنِّي أَشَاهِدُكُمْ كَأَجَلِي مَا تَكُونُ الْمُشَاهَدَةُ وَأَحْلَى!
مِنْ عَالَمِ الْقُرْآنِ تَخْرُجُونَ..
وَبِمَنَازِلِ الصِّدِّيقِينَ تَسْلُكُونَ..
الرَّبَّانِيَّةُ وَصُفُوكُمُ الْجَامِعُ،
وَالْعِلْمُ حَدُّكُمْ الْمَانِعُ،
إِذَا نَطَقْتُمْ فَبِحِكْمَةٍ،
وَإِذَا سَكَنْتُمْ فَعَنْ فِتْنَةٍ!
تُوزَعُونَ رَغِيفَ الْعِلْمِ عَلَى الْفُقَرَاءِ،
وَتُرْفَعُونَ أَلْوِيَةَ الْقُوَّةِ وَالسَّلَامِ..
نَعَمْ سَادَتِي.. أَنْتُمْ الْأَوْلِيَاءُ حَقًّا!
فَعَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ السَّلَامُ!

عجكم: فريد الأنصاري

مدخل قرآني

قال الله جلَّ علاه:

(وَحَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى
أَصْنَامٍ لَهُمْ. قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ! قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ. قَالُوا
يَعْمَلُونَ!)⁽¹⁾

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ!)⁽²⁾

¹ الأعراف: 138-139

² آل عمران: 152.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى أتاه اليقين.

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد؛

فهذه رسالة في نقد العمل الإسلامي بالمغرب، وليست في نقده. تصدرها اليوم بمحدف الإسهام في الإصلاح الضروري لمنهج؛ ومحاولة التقويم الداخلي لما اعوج من خطوه، ورد ما انحرف من قوله وفعله، غير ناقضين لأصله، ولا منكرين لفضله. ذلك أن النقد المدلل مدعوة الإسلامية ضروري كضرورة النار لتصفية الذهب، وكضرورة الجراحة لعلاج المريض. ومن قبل كتب ابن الجوزي - رحمه الله - في نقد العلم والعلماء كتابه الرائد "تلبيس إبليس"، وصنّف بعده الإمام شمس الدين الذهبي كتابه النافع: "زغل العلم والطلب" في نقد مذاهب الفقه والفقهاء. ثم صنّف الشيخ الإمام أحمد زروق الفاسي - مُحْتَسِبُ الصُّوفِيَّة - رسالته اللطيفة: "عُدَّة الْمُريدِ الصَّادِق"، في نقد شطحات

التصوف وبدع الصوفية، وكشف أخطائهم التربوية. وإنما هو منهم، بل من أجل شيوخهم؛ وبذلك لُقِّبَ بـ "محتسبهم". ومثل هذا وذاك في التراث الإسلامي كثير.

وضرورة النقد للعمل الإسلامي اليوم أكد وأشد، خاصة وال زمن زمن فتن! فتن ما مر مثلها قط في التاريخ الإسلامي! لا تصيب عوام الناس فحسب؛ وإنما تصيب العاملين في الصف الإسلامي أيضا، أفرادا وجماعات! وكأنها مقدمات قريبة، وممهِّدات رهيبية لما وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - من فتن آخر الزمان، وذلك عندما قال في بيانه العجيب: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ! يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا! يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا!)(3). وقد أحاطت بالعمل الإسلامي من ذلك أدخنة وأمواج، شططت به ذات اليمين وذات الشمال، فكثرت المتساقطون من صفه فكرا وممارسة، وانحرف السير كلية ببعض أجنحة جماعاته؛ بسبب ما اعتراه من مرض "الاستصنام"، وهو داء عضال يصيب القلب، ثم يضخه مع الدم في الشرايين حتى يستشري في الجسد كله! كما سيأتي بيانه بحول الله. وإنما المحفوظ من حفظه الله.

لقد أتى على الحركة الإسلامية بالمغرب حين من الدهر كادت أن تكون هي المتنفس الوحيد للشباب المتدين، خاصة في مرحلة السبعينات

³ رواه مسلم.

والثمانينات من القرن الميلادي الماضي، إِبَّانَ تَعَوَّلَ التيارات الماركسية الإلحادية المتطرفة، وتأسيس "دولة" صغرى داخل الدولة، بالجامعات المغربية! في إطار نقابتهم الطلابية آنئذ، "الاتحاد الوطني لطلبة المغرب"، المختصرة في لفظ: (أوطم)، حيث كان الإلحاد موضة العصر الثقافيَّة وخلفيته النضالية؛ فكان هو دين الدُّوَيْلَةِ "الأوطمِيَّة" الرسمي! دُوَيْلَةُ لها حكامها، ومليشياتها، ومحاكمها، وعقوباتها! تسهر على حماية ظلمها وظلماتها بالحديد والنار! حتى كان مجرد النطق "باسم الله" جريمة تؤدي إلى تكسير العظام وتحطيم الجماجم! وكيف لا؟ وهما المبدأ الأول للخلفية الماركسية قائم على أن (لا إله والحياة مادة!) ثم كيف لا؟ وهما القانون العام للممارسة النضالية مُؤَطَّرٌ بالفكر الثوري الأحمر، والنهج الدموي الانقلابي، وفلسفة "ديكتاتورية البروليتاريا"! فأَنَّى يُسَمَّحُ للفكر الغيبي والدين "الرجعي الظلامي" (كذا)! أن يتسرب إلى قطاع يعتبر هو قاطرة الحركة التقدمية بالمغرب؟!

تلك مرحلة عشناها بأحزانها ومآسيها ليس هذا مجال نقدها ودراستها، وإنما القصد هنا بيان بعض الجوانب التاريخية، من ظروف ميلاد الحركة الإسلامية بالمغرب، بإشهاد أمارات فصلناها في مواطن أخرى⁽⁴⁾؛ تمهيدا للحديث عن طبيعتها وأصل منشئها، ثم صور تحولاتها وأسباب مزالقتها!

4 ن. كتابنا: البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي.

كانت طليعة الحركة الإسلامية بتلك المرحلة عبارة عن مساحة خضراء، فيها يتنفس الشباب المؤمن، وفيها يرسم أحلامه، ويبنى (مدينته الفاضلة) لأيام أو لساعات، مخيمات ورباطات، كما كانت فضاء ربانيا جميلاً، فيه تُعقد مجالس الروح وحلق الإيمان؛ لتغذية القلب، وصقل العقل، وعمران الوجدان. مجالس كانت عبارة عن معارج تصل القلوب بالسماء، وتخلصها من كابوس الفكر المادي وظلماته! نعم، لقد كانت محاضن الإيمان ترتقي بالشباب ليعيشوا أحوال نماذج القرآن، مع "رجال حول الرسول"؛ ويدخلوا رحلة البحث عن الحقيقة مع سلمان الفارسي، ويشتغلوا بتضميد الجراح مع عمار بن ياسر، ويتجردوا لحمل الأمانة مع مصعب بن عمير! ثم يتدربوا على القبض على الجمرع في "معالم في الطريق". وبين هذا وذاك يكون الاسترواح من لفح الصحراء "في ظلال القرآن".

حتى إذا جد المسير، وانطلق العمل من "المنطلق"، واشتعلت نيران "العوائق"؛ بادرها الإخوان بماء "الرفائق"! واستنارت الليالي الخضراء بتلاوات شجية، تنزل برداً وسلاماً - في ثلث الليل الآخر - على قلوب باتت تتهدج في غرفها، لا ترى من ملامحها إلا أطرافاً متلفعة بأجنحة الليل الساجي، صفوفاً صغيرة هنا وهناك، ينصتون إلى القرآن ترتيلاً ملائكياً يصل القلوب بالملا الأعلى! وقد كانوا حقاً: (إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا

لَمَفْعُولًا. وَيَخْرِوْنَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا! (الإسراء: 107-109).

ومن هنا كان الطابع الغالب على العمل الإسلامي - في مرحلة ه الأولى - هو التأسيس التربوي، والعمل التعليمي، والاشتغال بالمنهج الدعوي الخاص والعام، لتحديد بناء النسيج الاجتماعي الديني؛ فأثبت ذلك المنهج جيلا من أهل الفضل والخير، هم الآن مُرَبُّونَ وأُطْرُشٌ حتى، ينفع الله بهم البلادَ والعبادَ في شتى المجالات والقطاعات. واستمر الأمر على ذلك زمنا، ينتج ويربي على منهج الأنبياء والصديقين. إلى أن نمت الأجسام الحركية وتطورت الأشكال التنظيمية، فكان الابتلاء الذي خسرت فيه الحركة الإسلامية كثيرا! ظهرت فكرة التخصصات في العمل الإسلامي على جميع المستويات: الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والإعلامية، والنقابية، والسياسية. وانطلقت الحركة الإسلامية تقسم ميراثها على أبنائها في حياتها! ولكن النتيجة أن كل التخصصات التي أُعْلِنَ عن ميلادها ماتت في مهدها، إلا التخصص السياسي! هو وحده نما وتضخم، واحتل كل المساحات الأخري! فأكلت السباع كل شيء! وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم: فقد (وَلَدَتِ الأُمَّةُ رَبَّتَهَا) فعلا! وبذلك شهدنا في الحركة الإسلامية ملامية

نفسها مظهرًا من مظاهر علامات الساعة!⁽⁵⁾ كما سنفصل بعدُ بحول الله. وانسحبت التربية الإيمانية الدافئة من مجالس الإخوان، لصالح التربية السياسية القارسة! ثم انتصبت مرايا الأهواء والشهوات أمام الشباب، فتساقط الفراش على اللهب! وكانت المأساة! وبدل أن تنتج الحركة الإسلامية - هذه المرة - المؤمنين الربانيين، بمحاضنها الخضراء؛ بدأت تُفرِّخُ عقاربَ خضراء! اندست بخضرتها المموهة في خضرة العمل الإسلامي، فكان الإسلاميون أنفسهم هم أول من تعرض لمرض السعامة!

إن الناظر إلى عجيج السياسة وضجيج الصحافة يظن أن العمل الإسلامي في المغرب اليوم - من حيث هو جماعات تنظيمية - بخير وعلى خير! وأنه على مواقع متقدمة من معركته الحضارية الشاملة! لكن الحقيقة أنه قد تخلف عما كان عليه من قبل كثيرًا، وفشل فشلاً ذريعاً في الحفاظ على مواقفه الاستراتيجية التي كان قد استصلحها بمنهجه التربوي وخطابه الدعوي الشعبي والأكاديمي؛ فكانت له مجالات حيوية، منها ينطلق وإليها يعود! إنه اليوم قد فقد مدها كليّةً

⁵ إشارة إلى حديث جبريل المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي فيه: (قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل!") قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: "أن تلد الأمة ربّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان!") رواه مسلم.

وخرج منها مطرودا مدحورا! فصارت ظهوره عارية، مكشوفة لأعدائه الإيديولوجيين، تلفحها سياطهم على الهواء! حتى أنه مارت صفوفه دون مقاصده الأصلية، قد أثخنه خناجر الأهواء والأعداء جراحا بليغة!

لقد كانت أخطاؤه الجسيمة التي وصلت إلى حد الانحراف التصوري والسلوكي، والخروج عن المنهج الإسلامي ببعض المواطن - كما سنفصل بعد بحول الله - سببا رئيسا في دخوله مرحلة من العد العكسي، وبرزخا من التراجع مع الله هجي! لقد تضخمت الأولويات السياسية - على المستوى التصوري - في جماعة "العدل والإحسان"، واستبدت بها أحلام "الخلافة" إلى درجة التخلي عن المهديان! وتضخم العمل الحزبي - على مستوى الممارسة - لمدى حركة "التوحيد والإصلاح"، وانتفخ انتفاخا سرطانيا؛ حتى أتى على كل مكتسبات الحركة التربوية ومكاسبها الدعوية والاجتماعية. قال أمر الجماعتين معاً - لمن حقق النظر فيهما - إلى أن صارا وجهين لعملة واحدة! تلك على مستوى التصور والممارسة الاستعراضية، وهذه على مستوى برنامج الأولويات والممارسة الحزبية!

فعلى هذا السياق كتبنا رسالتنا هذه. ولذلك ربما كان فيها ما - ببعض المواطن - شدة، لكنها شدة على قدر ما وقفنا عليه في جسمها العليل من الداء، وعلى درجة خطورة ما لاحظناه في خطوه ما من تداخل الأعمال بالأهواء! ثم على قدر ما وجدنا بين أعطافها وحدائقها

من عقارب! إلا أن ذلك لا يعني أبداً أن الحركة الإسلامية شر كلها. كلا وحاشا! بل لقد كان لها الفضل الأول في السبعينات والثمانينات من القرن الميلادي الماضي - بعد الله تعالى - في إيقاظ روح الله مدين بالبلاد. ومدافعة تيارات الزندقة والإلحاد! وما يزال كثير من العاملين في صفوفها من الصالحين المتقين، بل ربما وجدت منهم أحيانا بعض الأولياء الربانيين الحقيقيين!

ثم إن الغاية من هذه الورقات إنما هي التنبيه إلى ما قد مداعة ترى الصف الإسلامي من ثلمات، عسى أن نبصر من ذلك ما يساعدنا على تلافي الشر. وأول العلاج كما يقال حسن التشخيص للأدواء، قبل بيان وصفات الدواء. أما المقترحات البديلة لما انتقدناه فلم نذكر منها ههنا إلا عبارات محملة؛ عسى أن تأتي - بحول الله - في بحث لاحق يكون فيه بعض التفصيل⁽⁶⁾. مع أن قسطا من ذلك قد اقترحه ما بدائله في بعض كتبنا السابقة، ككتاب "البيان الدعوي" و"بلاغ الرسالة القرآنية" و"محالس القرآن". هذا بالإضافة إلى أن بعض الأمور المتقدمة لا تحتاج

⁶ نحن مشغولون بتصنيف كتاب لهذا الغرض، يتضمن تصورات منهجية، وقواعد كلية، وموازن أساسية، لما نرجو أن يكون بناء متوازنا - إن شاء الله - للعمل الإسلامي، مؤصلاً في الكتاب والسنة، ومنزلاً على مقتضيات الزمان والمكان وظروفهما؛ عسى أن نسهم في تصحيح المسار الدعوي بمنهج بنائي، راجع إلى أن يكون هذا الكتاب - الذي بين يديك الآن أخي القارئ - هو آخر من ورقاته النقدية للعمل الإسلامي بالمغرب خاصة. وما التوفيق إلا بالله.

إلى بديلٍ منتقى، وإنما هي في حاجة إلى تركٍ وكفى؛ لأننا في نظرنا زوائدٌ مُضِرَّةٌ، وعراقيلٌ مُحَرِّقَةٌ، لا يسلم السير إلا بتركها. وربما تزين الناس بالتخلي؛ قبل أن يتزينوا بالتخلي. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله. هذا، وقد جعلنا محمل هذا التقييد - دون المقدمة والتمهيد والخاتمة - في بابين اثنين: الباب الأول: في الأخطاء المنهجية الكبرى للحركة الإسلامية بالمغرب. وفيه خمسة فصول، ترجنا في كل فصل منها لخطأ من الأخطاء الاستصنامية. والباب الثاني: في استصنام "المذهبية الحنبلية" في التيار السلفي. وجعلناه ثلاثة فصول، لخصنا فيها أهم الأخطاء المنهجية للفكر السلفي بالمغرب.

ثم إننا قبل إصدار هذه الورقات قد استشرنا مع بعض أهل العلم والفضل، باعتبار أننا قد تواجهت بما بالدعاية السياسية لصالح جهة ضد أخرى، ممن لهم غرض في خوض غمار الانتخابات السياسية. والله جهد الله أن قصدنا من ذلك براء! وأنا كتبنا ما كتبنا لله، ثم لخاصة دعاءة المسلمين ولعامتهم. على مقتضى حديث النبي صلى الله عليه وسلم في النصيحة⁽⁷⁾. خاصة وأن مقولاتنا النقدية هذه، عامة شاملة، لا تتعلق

⁷ ونصه: عن ثميم الداري - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم!) رواه مسلم. وروي أيضا عن أبي هريرة وابن عباس في كتب السنن.

ب هذه الحركة دون تلك، ولا بهذا التيار دون ذاك، حتى ممن لا غرض لهم في المعارك الانتخابية أصلاً، كالتيار السلفي مثلاً، وقد فصلنا في نقده تفصيلاً.

ثم إننا - قبل ذلك وبعده - قد استخرنا الله تعالى في الأمر؛ فترجح لنا - بناء على هذا وذاك، وعلى تقديرات أخرى رأيناها - أن نخرجها إلى الجمهور؛ لكشف خطورة العقارب الخضراء في العمل الإسلامي! وما ألقته من ضرر - وما تزال - على الدين وأهله، ما لا قبل للناس به! مُعْرِضِينَ - في الوقت نفسه - عن كشف تفاصيل أدق، تتعلق في بعض الأحيان بأشخاص بأعيانهم؛ عملاً بالمنهج النبوي في نقده - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه على الإجماع، بتعبيره النبي صوي الشريف: (مَا بَالُ قَوْمٍ؟ أَوْ مَا بَالُ أَقْوَامٍ؟) ⁽⁸⁾. اللهم إلا من ترجح لدينا انحرافه، وغلب في تقديرنا جهله وبهتائه، فاخرمت مروهته، ومهقطت عدالته! وصار رأساً في الفتن، ورمزا من رموز الدجل والدجّن! بما تواتر عنه من حرّم أحكام الشريعة، أو بما صرّح هو نفسه من نقض

⁸ هذا التعبير النبوي متواتر، فقد ورد في أحاديث صحيحة كثيرة، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (أما بعد؛ فما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله؟) متفق عليه. وصح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: "ما بال فلان يقول؟" ولكن يقول: "ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟") رواه أبو داود. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

صريح للمقطوع به من كليات أصول الدين! فمثل هذا لم نجد حرجاً في تحريكه؛ تعبدنا الله ببيان غيه وضلاله. ذلك، ثم نقول: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ). (الحشر: 10).

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.
وكتبه - بمكناسة الزيتون - عبد ربه، راجي عفوّه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه: فريد بن الحسن الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد وافق تمام تصنيفه في مسودته الأولى يوم الجمعة: 20 ربيع الثاني: 1427هـ.، الموافق لـ 13/10/2006م.

تمهيد مد:

الحركة الإسلامية بالمغرب وقضية "الاستصنام المنهجي"!

تعيش الحركة الإسلامية بالمغرب - كما في بعض الأقطار الأخرى - أزمة حقيقية! أزمة تُرجع بالدرجة الأولى إلى كونها صارت عاجزة عن أداء وظيفتها الحقيقية، والقيام برسالتها الربانية، التي كانت هي مبرر وجودها، وشرط ميلادها، ثم مُسَوِّغ إقبال الناس عليها في مرحلة سابقة. وقد حاولنا في هذه الورقات أن نرصد أهم المعوقات التي ضربتها في صلب محركها، وخرقتها في إطار عجلتها؛ فأعجزتها عن السير في الاتجاه الصحيح، وانخرفت بها متدحرجة في المسالك الضاربة على غير هُدى! وذلك بحصر كل إشكالاتها المنهجية في ستة أخطاء كبرى، ذات طبيعة كلية، إليها يرجع أغلب الأخطاء الأخرى التي هي من قبيل الجزئيات والفرعيات. وقد تبين لنا من خلال الممارسة الدعوية، والاحتكاك الحواري مع أغلب فصائل الاتجاهات الإسلامية بالمغرب، لسنوات عديدة، أنها في خياراتها هذه التي نعدّها اليوم أصول أخطائها المنهجية، قد وقعت في نوع من "الشرك الخفي"، أو ما أسميناه بـ "الاستصنام المنهجي". وذلك أنها في بعض خياراتها الاستراتيجية الكبرى صارت إلى ضرب من "الانحراف" عَقرَها عن السير في طريقها الأصيل، وأدى بأشكالها التنظيمية ذاتها إلى أن تصبح حُجُباً لها هي

نفسها عن النظر إلى مقصد "إقامة الدين" في النفس والمجتمع، ذلك المقصد الكلي الذي رفعته شعاراً لها من يوم ولادتها.

وقد استفحلت تلك الخيارات/الإشكالات، وانه تطالت عليه ما، بحيث صارت معوقات ذاتية، تحجب عنها الرؤية الواضحة إلى الأفق! وتمنعها من النظر النقدي إلى فكرها، ومن المراجعة الإصلاحية لسيرها؛ حتى رسخت أشكائها في الواقع رسوخاً حوَّلها - في ذهنها - من رتبة "الصواب" إلى رتبة "الحق"! فصدها ذلك من مجرد محاولة وضع السؤال - الضروري لكل فعل بشري - عن مدى صوابية خطواتها، وانه ملامة سيرها، وصحة مواقفها؛ بله المحاسبة النقدية لتصوراتها واختياراتها! تماماً كما وقع لبَلْقِيسَ مَلِكَةَ سَبَأَ من صَدْدٍ وَحَجَبٍ عن إدراك الحقيقة أول الأمر؛ بسبب الْحُجُبِ الشَّرِكِيَّةِ التي كانت تسكن عقلها، وتملأ وجدانها، رغم ما شهدته من معجزات ربانية وبراهين توحيدية: (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا مَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ!) (النمل: 43). ولذلك كانت في حاجة إلى "صَدَمَةِ الصَّرْحِ" التي أيقظتها من غفلتها! حيث أُلْقِيَ بها في لُجَّةِ الحقيقةِ إلقاءً، فخاضت عُبابها بذاتها ووجدانها؛ كي تنظهر من أدراجها وأهوائها ما، وتنجلي في الْحُجُبِ الكثيفة عن بصيرتها! وتلك كانت لها تجربة ذاتية عميقة، أدخلتها في مواجهة أنوار الحقيقة مباشرةً، فشاهدت الفرق الشاسع بينها وبين أوهامها! وذاك قول الله جَلَّ عِلَالُهُ: (قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الصَّرْحَ! فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا! قَالَ: إِنَّهُ صَرْحٌ

مُمرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ! قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأُسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ! (النمل: 44).

إن الحُجُبَ الشَّرَكِيَّةَ التي صَدَّتْ مَلَكَةَ سِبْأَ عن مشاهدة حَقِّ مَائِقِ
التوحيد، ومنعتها من إدراك خطئها الاعتقادي، قد انتصب اليوم ما
يشبهها - من الناحية المنهجية - في وجدان الحركة الإسلامية! وذلك
ما أسميناه بـ: "الأصنام المنهجية"، أو "الإستصنام المنهجي"؛ إذ أنها بما
بلغته من أشكال التقديس لاختياراتها، والتدبريه لتصوراتها، وجعلها
فوق النظر النقدي والمراجعة الحقيقية، بصورة شعورية أو لاشعورية؛ قد
جعلها "تستصنم" أخطاءها بالفعل، فانتصبت أوثانا معنوية بعقلها
ووجدانها، وجعلت تصدها عن الإدراك السليم والسير القويم! ولا
خلاص لها إلا بـ: "صدمة صرح" من نوع آخر، "صدمة صرح"
تُخرِجُها من أوهامها، وتحطم الأصنام المنهجية في مخيلةها! وتم دم
الأسوار الحاجبة لها عن مشاهدتها! و"صدمة الصرح" ههنا إنما هي
"صدمة تفقيهة"، وذلك بدخول علمي تعبدية صادق، إلى صرح القرآن
العظيم، وبياناته النبوية الواضحة، من خلال قواعد العلم، ومواجهته
الإيمان. ثم عرض اختياراتها الاستراتيجية على موازينه؛ لإدراك مدى
الفرق الرهيب بين الحقيقة والتمثال!

وعليه؛ فإن الإستصنام الحاجب للحركة الإسلامية اليوم، عند
استقراء طوبه وأحجاره، واستقصاء ما رفَعَتْهُ من نُصُبٍ على أسواره؛
يرجع - كما ذكرنا - إلى ستة أخطاء منهجية كبرى، هي المرجع

الكلي للانحراف، والسبب الجامع للاستصنام! أخطاء تجسدت بصورة
خشنة في فكر الإسلاميين وممارساتهم التنظيمية! فتعلقت بما قلد وبعهم
رغبا ورهبا! وخلعت عليها من التثنية والتقدیس ما جعلها طواغيت
وأصناماً، تحجب القلوب عن إخلاص الدين لله! وهي:

- الخطأ الأول: استصنام الخيار الحزبي
 - الخطأ الثاني: استصنام الخيار النقابي
 - الخطأ الثالث: استصنام الشخصية المزاجية
 - الخطأ الرابع: استصنام التنظيم الميكانيكي
 - الخطأ الخامس: استصنام العقلية المُطِيعَة
 - الخطأ السادس: استصنام المذهبية الحنبلية" في التيار السلفي.
- وقد عقدنا لكل منها فصلاً أو باباً؛ على حجم ما وجدنا فيها من
قضايا وإشكالات.

هذا، وقد يستغرب البعضُ جَمْعَنَا للتيار السلفي مع "الحركة
الإسلامية" في ملف واحد، والجواب أنه - فعلاً - هو كذلك ملف
واحد، كما سترى بدليله إن شاء الله. بالرغم من أن السلفية المتهمة بأخره
صارت تتبرأ من مفهوم "الحركية". فعلاوة على أن أخطاء أي صنف
من أصناف العمل الديني يَبْوء بمآلاتها الوخيمة، ونتائجها السلبية - في
الواقع السياسي والاجتماعي - كُلُّ التنظيمات والتيارات الإسلامية،
سلفية كانت أو غير سلفية؛ فإن نشأة الحركة الإسلامية بالمغرب كانت
متلبسة بالفكر السلفي ابتداءً. ولم يحصل التمايز والافتراق إلا فيما بعد.

ثم إن التيار السلفي صار - من حيث يدري أو لا يدري - رقم ١ سياسياً، موظفاً في اللعبة السياسية الوطنية والدولية، خاصة بعد التطورات الفكرية والتنظيمية التي عرفت بها بعض فرقته، كما سنبين بهذه الأوراق إن شاء الله.

هذا، وقد عبرنا عن مواقف الحركة الإسلامية إزاء الأخطاء الستة المذكورة - غالباً - بمصطلح "الاستصنام"؛ لأن تلك الأمور ليست أصناماً في حد ذاتها، ولكن طريقة تعامل الإسلاميين معها؛ بما خلعهوه عليها من التثنية والتقدیس، ومن الانبهار والإعجاب؛ هو الذي جعلها أصناماً معنوية بالفعل؛ فأنحرفت بهم عن أهداف العمل الإسلامي ومقاصده؛ فكانت الأزمة! وبيان ذلك هو كما يلي:

الباب الأول

الأخطاء المنهجية الكبرى للحركة الإسلامية بالمغرب

ترجمة الباب: قولُ الله جَلَّ عُلَاهُ:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ. قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ! قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ!)⁹

⁹ الأعراف: 138-139

الفصل الأول: استصنام الخيار الحزبي

لن أكون مبالغاً إذا قلت: إن اتخاذ "حزب سياسي" كما كان أكرم حزب
خطيئة وقعت فيها الحركة الإسلامية بالمغرب!⁽¹⁰⁾ لقد صدقنا

¹⁰ أقول ذلك وأنا أؤيد وجود "حزب العدالة والتنمية"، ولكن في تركيا لا!
إن اتخاذ حزب إسلامي صرف في تركيا قد فشل فشلاً ذريعاً! وعاش حياً حياة
متكسرة مع الزعيم المشهور "نجم الدين أربكان" سواء في "حزب الرفاه" أو في
"حزب الفضيلة". ولقد خسر الإسلام في تركيا مع تجربة "أربكان" من
المكتسبات أكثر مما ربح! إلى أن انشق عنه ثلة من الشباب الأذكياء، بقيادة رئيس
بلدية استنبول، ثم رئيس الحكومة التركية فيما بعد، السيد "رجب طيب
أردوغان"، فانشقوا "حزب العدالة والتنمية"، الذي خاض تجربة جديدة بعدة
شعارات دينية، على خلاف تجربة "أربكان" ذات الشعارات الإسلامية الواضحة.
وحزب العدالة والتنمية التركي - إذا أردنا توصيف حقيقته - فإننا نقول: هو
حزب "علماني" يقوده رجال متدينون.

لكن الحكمة الراقية للتجربة التركية في مجال العمل الإسلامي أنه لا جعلت
العمل الحزبي - ولا أقول "العمل السياسي" مطلقاً - عضلة واحدة من عشرات
العضلات التي تعمل بها! وفصلت فصلاً واضحاً، لا لبس فيه ولا اشتباه، بين
العمل الدعوي ومؤسساته التربوية والتعليمية والإعلامية والاقتصادية، وبين العمل
السياسي في صورته الحزبية. سواء فيما يتعلق بالمؤسسات الإدارية أو ما يتعلق
بالرموز القيادية والموارد البشرية والمالية. فكانت الحركة الدعوية هناك هي التي
تؤمن البنية التحتية للعمل الإسلامي جملة، كتأمين التدين العام، وتأمين التربية

الإسلاميون يشتغلون في الشك، وقد كانوا - من قبل - يشتغلون في اليقين! وكانوا إلى الإخلاص في الأعمال أقرب، ثم صاروا إلى خذل ط مبین! فانتقلوا بذلك من مقاصد العبادات إلى مقاصد العادات! أله ما هم التلميع والتسميع، وانخرط كثير منهم في الحزب على ح رَف! تمام ك (مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الْمُدَّتِيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ!) (الحج: 11). إن اتخاذ "الحزب" في العمل الإسلامي هو أشبه ما يكون بـ "اتخاذ العجل" في قصة بني إسرائيل! إنه ما أن أمضت الحركة

والتعليم، والاقتصاد، والإعلام، إلخ.. ومن ثم تصنع الرأي العام السياسي المتيدين حقيقة، الذي يمنح الحزب السياسي أغلبية البرلمان ثم إمكانية تشكيل حكومة. إن الثقل الكبير في تركيا إنما هو لدى الحركة الدعوية وليس لدى الحزب. ف الأولى تتحكم في الثاني من الناحية اللوجيستكية، وهو يمدّها بإمكانات جديدة لمجالات أخرى من العمل الإسلامي، كانت ممنوعة عنها من قبل؛ وبذلك يتقدم العمل الإسلامي بالبلاد، ويحرز مكاسب جديدة، رغم شدة الظروف المعروفة في دولة كمال أتاتورك!

فعدم معرفة الفوارق بين الأوطان والبيئات، وعدم اعتبار الح خصوصيات الثقافية والتاريخية والسياسية، يوقع التجارب الدعوية في المهالك! وتلك هي الحكمة التي أضاعها الإسلاميون المغاربة؛ باتخاذ حزب سياسي هم في غنى عنه أصلاً! فتحول إلى غول أتى على هياكل الحركة الدعوية نفسها التي ولدته، وأتى على تدين أبنائها! كما سيأتي بيانه أعلاه.

الإسلامية قرار "المشاركة السياسية"، حتى تطور ذلك القرار بشكل سرطاني - باندفاع ذاتي، ودفع من جهات أخر - م من مجرد "مشاركة" إلى صورة "تضخم سياسي"، أتى على الأخضر واليابس من منحزات العمل الإسلامي، في موارده البشرية ومكة سياقه الدينية في المجتمع العام - كما بيناه في كتابنا البيان الدعوي - لقد كان يوم إعلان اتخاذ حزب سياسي واجهة للعمل الإسلامي بالمغرب هو يوم إعلان وفاة الحركة الدعوية، وبداية العد العكسي المنحدر نحو نهاية "أطروحة العمل الإسلامي" بشموليته الكلية، وهويته الإسلامية!

إن العمل الإسلامي في الأصل هو عمل تجديدي للدين بالدرجة الأولى؛ بناء على الحديث المشهور، من قول رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا).⁽¹¹⁾ وما "الدين" إذا لم يكن هو هذا الإيمان الذي يربط العباد بالحقائق الغيبية؛ إيماناً بالله وباليوم الآخر؟ وما تفرع عنهما من حقائق إيمانية أخرى، ثم ما تقرر في أصول الإسلام من وجوب المدخول في أمهات العبادات والتزامه عن كبائر الخطيئات؛ طلباً للفرج من النعيم والنجاة من عذاب الجحيم! هذا هو أساس خطاب القرآن، وهذا أول ما ينبغي العمل على تجديده في النفس وفي المجتمع، وكل ما سواه

¹¹ رواه أبو داود واللفظ له، كما رواه الحاكم والبيهقي. وصححه الألباني

في صحيح الجامع الصغير.

من أمور الشأن العام إنما هو تبع له والعكس غير صحيح، كما فصلناه في غير هذا المكان¹²). وكل ذلك لا يكون إلا بوجود قوم صادقين يجتهدون أولاً في التخلق بتلك الأعمال فعلاً وتركاً؛ على درجة من العلم والصلاح تؤهلهم لمخاطبة عامة الناس من الشاردين والجاهلين. وذلك لا يكون إلا بأخذ كتاب الله بقوة! والدخول في تعلم بياناته النبوية، على مدارج التزكية والتعليم (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (آل عمران: 164).

وعلى هذا تأسس العمل الإسلامي بالمغرب ابتداءً، فكان عطية الأول جيلاً من الخيرات والبركات. ثم جاء الحزب السياسي فأتى على ذلك جميعاً! تماماً كما دمر "السامري" كل الرصيدة الإيمانية لبني إسرائيل، بعد غيبة موسى؛ عندما صنع لهم - من الذهب - جسداً، عجلاً له خوار، فظلوا عليه عاكفين! قال تعالى: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً. اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) (الأعراف: 148). نعم، لقد كان الحزب فتنة حقيقية للإسلاميين، كما كان العبد مل فتنة لبني إسرائيل! وللذهب بريق مادي فكان في قصة بني إسرائيل، كما أن له

¹² البيان الدعوي: "الفصل الرابع".

بريقاً معنوياً ومادياً فتاناً أيضاً في قصة الإسلاميين! ومن ذا قدير على مقاومة فتنة الذهب إلا القليل! (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ!) (طه: 90). كذلك كان، والله المستعان.

ثم إن الاستصنام الحزبي جعل كثيراً من أبناء العمى للإسلام ملامية منشغلين بعموم الناس الدنيوية فقط! ثم جعلوا - بعد ذلك - لهمومهم الشخصية من تلك الهموم حظاً! وتدافع الهم الشخصي مع الهم العام في مقاصد بعضهم، فتكون الغلبة لهذا تارة، وتكون لذاك تارة أخرى؛ على قدر قوة الإيمان وضعفه في نفس صاحبه وما وجد زراً. فما نخرطوا بذلك - على كل حال - في بناء خطاب مادي بالدرجة الأولى، يحلل الأزمات الاقتصادية ومشكلات البطالة، والرد السياسي على الهجومات الإلهائية، التي تصدر عن بعض متعصي اليهود والنصارى، أو عن بعض زنادقة المسلمين، فيُخْرِجُونَ المظاهرات وينظمون المسيرات، ثم يؤوبون في المساء إلى مواقعهم سالمين، مطمئنين إلى أنهم قد أُنْجِزُوا من "النضال" ما يشفع لهم عند الله يوم القيامة، عندما يُسألُ الناسُ عن دينهم ماذا فعلوا فيه؟! ونسوا القضية الكبرى: قضية الإنسان مع خالقه، وما صيره في آخرته! كيف كان في عِبْدِيَّتِهِ؟ أَمِنَ الأوابين التوابين أم من الآبِين الشاردين؟ ماذا كان تعامله مع رسالة ربه؟ وكيف كان تجاوبه مع نذارته وبشارته؟ ذلك ما لم تحتم به الحركة الإسلامية ملامية في خطابها الداخلي والخارجي إلا قليلاً قليلاً...! وتلك هي المشكلة! فالقرآن حسم الأمر بأنما المعول عليه في الدين يوم القيامة إنما هو كَسْبُ الإنسان في

إيمانه، بمعنى ما ترتب عن إيمانه بالله واليوم الآخر من العبادة والعمل الصالح. وما أشد هذه الآية من كتاب الله التي تجعل الإيمان الفارغ من كسب الخير غير نافع لصحابه! قال جل ثناؤه: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ! يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا! قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ). (الأنعام: 158).

إن القرآن عندما كان يعالج قضايا الاجتماع البشري كان يحوطها بترساة من السوابق والواحق المقالية، التي تؤسس الحظوظ الدنيوية على المقاصد الأخروية في قلوب المؤمنين! ففي سياق التشريع الأسري وفي إطار التنظيم الاجتماعي أورد الله تعالى وصيته للمسلمين في شأن المحافظة على الصلاة؛ ربطا للدنيا بالآخرة أبداً! فقال تعالى في سياق التشريع الأسري زواجا وطلاقا: (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالْصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ. فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَاحُنَّاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ بِهِ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). (البقرة: 237-242).

فانظر إلى آية الصلاة كيف جاءت متفردة في سبيلها ثم دُمِّمَتْ بِسَوَابِقِ تَشْرِيعِيَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَتَعَقُّبِهَا بِلَوَاحِقِ مِثْلِهَا، آيَاتٍ عَدَدًا، كَمَا هُوَ فِي أَصْلِ السُّورَةِ؛ وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِجَعْلِ أَمْرِ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ وَالنَّسِيحِ الْعِمْرَانِيِّ لَا يَسْتَقِيمُ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بِنَائِهِ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمُخْصَّةِ، مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَسَائِرِ الْمَغْذِيَّاتِ لِلرُّوحِ؛ صَلَاةً بِاللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ!

وفي ظروف نزول القرآن التشريعي نزل قول الله تعالى بالمدينة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تُرَوُّنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) (الحج: 1-2). وعند حضور المغامم وميل بعض الناس إليها قال تعالى مبينا أن ذلك من أسباب الهزيمة في غزوة أحد: (وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّ سُورَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) (آل عمران: 152).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: ("مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا"، يعني: الغنيمة. قال ابن مسعود "مَا شَعَرْنَا أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -

صلى الله عليه وسلم - يريد الدنيا وعرضها؛ حتهى كما قال يوم
أحد!)¹³ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (إنما عتني بهذا الرمة ماة،
وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقامهم في موضعه ثم قال: "احموا ظهورنا! فإن رأيتونا نُقتل فلا تنصرونا! وإن رأيتونا ماة قد
غنمنا فلا تُشركونا!" فلما غنم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم -
وأباحوا عسكر المشركين؛ انكشف الرمة جميعاً، فدخلوا في العسكر
ينتهبون...! (...) فلما أخل الرمة تلك الخلّة التي كانوا فيها؛ دخل
الخيّل من ذلك الموضع على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - لم -
فصرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير!)¹⁴

وفي خاتمة سورة الفتح وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم
قال تعالى في توصيف أصحاب سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -
من فازوا بمعينه التربوية بأنهم عمال الآخرة بالدرجة الأولى: (مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ. تَرَاهُمْ رُكْعَةً
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَذَى
السُّجُودِ. ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ. وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ
شَطِئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ
الْكُفَّارَ. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

¹³ الجامع لأحكام القرآن: 237/4.

¹⁴ رواه الحاكم، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه).

عَظِيمًا) (الفتح: 29). والآيات والأحاديث من ذلك كثير، تكاد تشكل كل آي القرآن، وجميع البيان النبوي؛ مما يشهد أن الخطأ باب الأخرى هو أساس الرسالة الإسلامية، وأن ما دونه من أمور الدين الدنيوي العمراني أمر مهم، ولكنه تابع لهذه الأصول ومُتَبَّنٍ عليها! إن تحديد الدين قائم أساسا على تحديد علاقته بالناس؛ بإحياء التداول الإنساني للقرآن الكريم وحقائقه الإيمانية والخلقية. ولا يكون ذلك كله إلا بإحياء تربيوي لعلوم الدين! إحيائها في النفوس البشرية، وإشاعة ما أصله أن يكون معلوما منها بالضرورة، وبيان أحكام "مَا لَا يَسَعُ الْمُسْلِمُ جَهْلُهُ" على حد تعبير الفقهاء. في زمن بلغ تجهيل الناس بالدين من الدركات أن يكون بعض العاملين له في الصف الإسلامي - مع الأسف - لا يحسن صلاته ولا وضوءه!

إن التداول الاجتماعي للقرآن على سبيل التربية والتزكية، والتعلم والتعليم لأحكامه وحكمه كفيلٌ بالإحاطة بالرسالة الدعوية العلمية التمام. تلك هي الرسالة التجديدية التي وجب أن يحملها رجال الحركة الإسلامية ويطرقوا بها كل باب، من المدارس إلى المتارس! ولو حُمِلَتْ على حقها لكانت تغني عن اتخاذ الأحزاب والألقاب في بلد كالمغرب خاصة! فأتين هي الحركة الإسلامية المغربية من هذا؟ لقد أدخلت نفسها مع الأسف في جُحْرِ الضب! وسحنت كل إمكاناتها في قارورة الحزب السياسي، فحجرت على نفسها ما وسعه الله! وصارت تخاطب الناس ويخاطبونها على أنها حجرة من أحجار لعبة الشطرنج! أو رقم من أرقام

الحسابات السياسية، التي يُستغنى عنها متى ما اتت بهت وظيفة بها! إن الثقافة السياسية اليوم تقضي بأن الحزب السياسي ليس إلا لأهلها! بينما الدعوة الإسلامية هي للجميع! فانظر أي خطيئة وَقَعَتْهَا الحركة عندما استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير! فاختارت أن تطل على الناس من عين إبرة، وقد كانت من قبل تطل عليهم من عين الشمس!

إن ظروف المغرب وطبيعته المغايرة لكثير من بلدان العالم العربي والإسلامي لا تتحمل أبدا وجود حركة إسلامية في ثوب حزب سياسي! ثم إن اتخاذ حزب سياسي للعمل الإسلامي مبدئيا، إنما يصلح عندما تكون ظروف العمل الإسلامي - باعتباره منظومة دعوية - تحديدية شاملة - غير ممكنة في البيئة أو متعذرة، وبشرط أن تكون إمكانات العمل السياسي غير مؤدية إلى نتائج عكسية على مستوى الدين والتدين. ولقد عُلِمَ في قواعد أصول الفقه أن "كل فرع عاد على أصله بالإبطال فهو باطل!"

ولقد كان بإمكان الحركة الإسلامية بالمغرب أن تصل إلى أفضل النتائج السياسية - دون أن تتخذ لها حزبا - لو أنها اشتغلت كقوة دينية دعوية، حاضرة برجالها وأفكارها في كل ميدان، منهشرة في كل قطاع. من المسجد إلى المعمل ثم إلى الإدارة! ومن التعليم إلى الإعلام ثم إلى الاقتصاد. لقد كان بإمكانها أن تجعل بعض الأحزاب السياسية الأخرى تنخرط في تطبيق الممكن من برامجها السياسية! دون أن تدنر لبقها إلى شرك الاستهلاك التجزيئي لقوتها! ولكم من

بعد زمن يمكنها من إنضاج تأثيرها السياسي غير المباشر في الهيآت والمؤسسات. لكن عُقْدَتَهَا كامنة في أنها تنظر في عملها إلى الممكن وغير الممكن في اللحظة الآنية فقط، وتلك هي مشكلتها. إن ما ليس بممكن اليوم قد يكون ممكنا غدا، إذا قدمنا شروطه العملية عند الانطلاق، وسرنا في الاتجاه الصحيح. لقد كان بإمكان الحركة الإسلامية أن تكون ما أرادت لو أنها أرادت وجه الله حقيقة ولم تستعجل أمرها. إن سر الخطأ لديها أنها استثمرت كل طاقة لها في الهياكل والأشكال دون أن تستثمرها في الإنسان!

لقد كانت تجربة العمل السياسي للعمل الإسلامي بالمغرب فاشلة بكل المقاييس الشرعية والسياسية! بسبب أن الإسلاميين حاولوا قطف ثمرة لم يئث إبان قطافها، فتجرعوا مرارة فاكهة لم تنضج بعد! فكانت النتيجة خسارة للإسلاميين تجلت مظاهرها في المجالات التالية:

- على مستوى الفهم التصوري للدين:

رسخت صورة العمل الإسلامي غير المتوازنة في أذهان كثير من الإسلاميين، وتضخم التصور السياسي للدين! وضممر موقع العبادة من مساجد وصلوات! وصرت تسمع اتهام هذا المتكلم أو ذاك من الدعاة والعاملين للإسلام بأنه صاحب "خطاب وعظي" أو أنه "غارق في الفقهيات!" بل إن منهم من كان يدعو إلى ترك الأحكام الفقهية للمساجد، وأن الساحة إنما هي خالصة للخطاب السياسي والتحليل

السوسيولوجي..! كذا، يا ويلهم! كيف والقضية التي من أجلها نشأ كل هذا الصحيح والعجيج إنما هي الدين! وما الدين إن لم يكن نظراً إلى المآلات الأخروية واشتغالا بالأعمال التعبدية! لقد ضللتُ به خُصُ المقولات كثيراً من أهل الشأن الإسلامي زمننا ليس باليسير! كمقولة "شمولية العبادة" التي هي حق أريد به في بعض الأحيان باطل! ذلك أنها وظفت في بعض السياقات لإقامة دعاوى خاطئة! وإنما قيلت أصلاً لتنبيه الغافلين من الزهاد والمذنبين من العبادة إلى أن الانخراط في هموم المسلمين، والانغماس في شأئهم العام ضرب من العبادة أيضاً. ولكن بالتبع لا بالأصالة، وبالدرجة الثانية لا بالدرجة الأولى. وإلا فلا بركة في حركة تثير النقع في وغى السياسات، وتشعل الخطب النارية في نوادي النقابات، وأصحابها لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى! كيف وما (أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ! فَإِنْ صَلَحَتْ صَلَحَ لَهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ!)¹⁵؟! وما تحديد أركان الإسلام الخمسة وحصرها في "الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج"، إلا لتكون أصلاً، ويكون ما سواها لها تبعاً! لكن الانحراف وراء الرغبات السياسية جعل الفروع أصح حلاً؛ فقلوب الموازين! ثم انصرف كثير من أبناء الحركة الإسلامية إلى ما يشتهون؛ بدعوى أن

¹⁵ رواه الطياليسي، والضياء، عن أنس. ومن حجه الألباني في صحيح

الجامع.

"السياسة عبادة!" فما نجحوا في السياسة ولا صدقوا في العبادة؛
فخسروهما معاً! والله المستعان!

- على المستوى التربوي والدعوي:

انحار العمل التربوي والدعوي بصورة رهيبة، وضاعت مقاصد التدريس والتعبد لدى أبنائه؛ بسبب بروز المغامرات السياسية وتطلع ضعيفي الإيمان منهم إلى إغراءاتها المادية، ثم بسبب حماسة العمل السياسي ومبرعاته، وثقل العمل التربوي على النفس بما يحمل من مغارم وتكاليف، وما يتطلب من إعداد روحي، ومجاهدة للنفس قبل مجاهدة الغير: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا!) (المزمل:5). وظهر المتسلقون والانتهازيون في الصف الإسلامي أيضاً، ووصل بعضهم إلى مواقع الصدارة فعلاً. فبدأ العمل التربوي يتلاشى، وينهار شيئاً فشيئاً - وهو صمام الأمان للمشاريع كلها - حتى انحارت الحركة تماماً! وأخلت مكانها لصالح الحزب السياسي، وإن بقيت هياكلها الشكلية قائمة، لكنها - مع الأسف الشديد - أشباح بلا أرواح! وخسر العمل الإسلامي موقعه في مواطنه الأصلية، وعلى رأسها المدارس والثانويات ثم الجامعات! لقد كانت الدعوة تشتغل من قبل بالتربية والتكوين في صفوف التلاميذ، فكانت تضمن بذلك تنامي الدين والتدين في الأجيال المتعاقبة. لكنها ما أن فُتِنَتْ بالصنم السياسي حتى انسحبت من مواقعها الجهادية وتركزت المجال لغول "الفجور السياسي" يعيش في الأرض فساداً، ويُخْرِجُ من التلاميذ والطلبة أجيالاً تكره الدين وتلعن الوطن! وتقدس أنصاف

ناطحات السحاب! ثم تلقي بأنفسها منتحرة عبر قوارب الموت في غضب البحار!

فأصيبت الحركة الإسلامية في أبنائها بما وُجدت أصلاً لمحاربتها في غيرها! وتلك هي الطامة الكبرى حقاً! انساق الشباب - ذُكرنا وإناثاً - وراء الأهواء، ومقولات الإغواء، وانخرطوا في مضائق الجدل؛ هروبا من خنادق العمل. ثم حُرِّمُوا جمال الدين ورونقه: ألا وهـ و الخُلُقُ والحياء...! فصارت الفضاظة وسوء الأدب - مع الأسف - هي سيماء الخطاب لكثير من العاملين - زعموا - في الصف الإسلامي المامي واحسرتاه! ولأن دين كثير منهم - إلا من رحم الله - حتى شَفَّ عما تحته من ضعف وانحراف، تماما كما شَفَّ لباس كثير من "الحجج مات" عما تحته من فتنة وغواية! فأَيُّ بديل يقدم هذا العمل للناس؟

- على مستوى الأمانة الأخلاقية:

كانت الأخلاق هي الضحية الأولى التي دُبِحت عند قدمي الحصن السياسي! وبات الرهان خاسراً! فبدل أن (يُخْلَقَ) الإسلاميون الحية مادة سياسية - كما زعموا - تدنسوا بأوساخها! بسبب أن الموازين التي اشتغلوا بها في تقدير طبيعة الزمان والمكان كانت خاطئة! وبسبب أن الأولويات التي نادوا بها - عند اتخاذ الحزب - كانت على غير أولويات الدين! فماذا بقي للإسلاميين من الدين إن هم فقدوا أخلاقهم؟ يا ويلهم! كيف وها الدين كل الدين إنما هو منظومة من الأخلاق؟!؟

أين تضع الحركة الإسلامية برامجها - بعد هذا - من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَجَالِسَ أَحْسَنِكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أْبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أَسْوَأُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرَثَارُونَ، الْمُتَفَيِّهُونَ، الْمُتَشَدِّقُونَ!)¹⁶؟ وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبْغَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ! وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا! الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا! - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ! كُلُّ مِلٍّ أَلِى الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى جَسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ. وَأُشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ)¹⁷. وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا! وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْثِمَ خَصْلَةٌ مِّنْهُنَّ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذِبًا، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ!)¹⁸ وعن عبد الله

¹⁶ رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني، والبيهقي. وصححه الشيخ الألباني

في صحيح الجامع.

¹⁷ رواه مسلم.

¹⁸ متفق عليه.

بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (عَلَيْكُمْ بِالصُّدُقِ! فَإِنَّ الصُّدُقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ مَا يَصُدَّقُ وَيَتَحَرَّى الصُّدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ بِهِ صِدْقًا! وَإِنَّ مَا كُفِرَ بِهِ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ! وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ بِهِ كَذَابًا!)⁽¹⁹⁾.

لقد جعلت التجربة السياسة بعضهم يناور ضد إخوانه في الحركة، وينشئ الجيوب والأحلاف؛ ليكون على رأس لائحة الترشيح لبلديات أو البرلمانية! ومنهم من فحَرَ وَبَحَرَ هائجا من الغضب لما أُقْصِيَ من الاقتراح الانتخابي! ومنهم من وصل عبر السلم الخلفي إلى رأس اللائحة، كما يصل اللص عبر السرايب المظلمة إلى مكان الجواهرات! ويركل برجله ساخرًا كلمات البيان النبوي الصريح: (إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ!)⁽²⁰⁾. ثم يزعم علينا في نهاية المطاف أنه يمثل صوت الإسلام في "البلدية" أو في "البرلمان"! وبغير استحياء يرفع شعار دين أنزله من (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ!) (غافر: 19).

¹⁹ متفق عليه.

²⁰ رواه مسلم.

وبرزت أنصاب الكراسي من بعيد؛ فاجترفت شبيبة الحركة الإسلامية نحو الحزب السياسي انجرافاً! ففرغت "الحركة" من رجالها، وصارت أطلالا شاحبة تبكي الزمان الذي كان! فأشبهت حالها أماراً من أمارات الساعة، الواردة في حديث جبريل: (وَأَنْ تُلِدَّ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا!) والحركة وَلَدَتْ حَزْبَهَا، فأرضعته من خالص لبنها، حتى إذا بلغ أشده حَكَمَهَا، ثم ابتلعها! وباتت المواقع الدعوية في البلاد أفرغ من فؤاد أم موسى! وأتاحت للشيطان بذلك أن يركض بحوافره النجسة في كل مكان، وانطلق غول الفجور السياسي من عقله يخرب البلاد ويهتك الأعراس! فكان دين الشبيبة الإسلامية هو أول ما تعرض للفساد!

لقد انحطت الأخلاق العامة للإسلاميين انحطاطاً بليغاً، وعلى رأس ذلك خُلِقَ الحياء، في الرجال والنساء على السواء! كانت الفتاة المؤمنة - في المرحلة التربوية للحركة الإسلامية - لا تكاد ترفع بصرها إلى الشاب حتى يخفضه حياؤها الصادق ويرده إلى الأرض! و(الحياء من الإيمان)⁽²¹⁾ و(الحياء خير كله!)⁽²²⁾ ثم ترى الرجل على الرصيف فتنحرف عنه إلى الرصيف الآخر؛ تحاشياً لفتنة قد تقع منها أو عليه! لا لله درهما! كيف كانت تمشي بوقار، مُتَعَبِّدَةً بلباسها المساتر الوافي. متنزهة عن الألوان الصارخة والأشكال الفاضحة، لا تغنج في صوتها

²¹ رواه البخاري مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

²² رواه مسلم مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا تصنع. تنأى بشرفها عن الشبه والشيئات. وتجاهد بدنف سها
لتحصيل منازل التقوى والورع؛ فبارك الله في حركتها وفي سعيها.
وكذلك كان أخوها.

أما اليوم، فقد نبت جيل مشوه من هذا المسمى بـ "الأخوات"!!..
مُحَجَّباتٌ تَبَرَّجْنَ بـ "حِجَابِهِنَّ" أشد من تَبَرُّجِ السافرات بعريهن! وإذا
خاطبن الشباب سَمَرْنَ فيهم أعينا خائئات! وتصنعن في أصواتهن أنغاما
زائدة، وحروفا باردة! ولقد عجبت كيف صار أغلبهن في هذا الزمان
لا ينطق "الراء" إلا بما تقتضيه قواعد التجويد والترتيل! كأن بالسننهن
علة! وما باللسان من علة، ولكن القلب هو العليل! ثقة رب من مك
إحداهن لحاجة فتكاد تدهسك بصدرها! يا ويلها! وأذكر أنني انتقدتُ
يوما هذا الانتكاس الخلقي في لباس الأخوات بلقاء دعوي، داخل أحد
مقرات الحركة - وكان تيار الفجور السياسي العام في أول عهده آنئذ
- فردت عليَّ إحدى "الزعيمات" - وهي "الأستاذة" يـ مـ حـ سـ رة -
عندما ذكرتُ بأن ذلك علامة على اختلال تربوي، فَرَفَعَتْ نَحْوِي
وجهاً يكاد يسيل من الطلاء والدهون، وقالت بما يشبه الالتهام: (أو
قل: إنهن تَقَدَّمْنَ!) ثم رجعتُ أندب مصير التدين في التنظيم الإسلامي!
فيا لتقدُّمٍ انطلق من فقه (الانحلال) ولم يقف حتى مَرَّغِ الأعراض في
التراب!

فبأي وجه تخاطب الحركة الإسلامية الناس اليوم إذا هي كـ مذبت
في خطابها كما يكذب السياسيون، وفجرت في خصامها كما يفجر
النقابيون؟ ثم انحلت في أخلاقها كما ينحل الشهوانيون؟

الفصل الثاني: استصنام الخيار النقابي

دخلت الحركة الإسلامية التجربة النقابية بلا تَرَوٍّ، ولا تأصُّل. فقامت برصيدها الأخلاقي والديني؛ بخوض غمار عمل ما يزال مشبعاً بلغة الصراع الطبقي، والمقولات الماركسية في الفكر الاقتصادي، والنظريات الاشتراكية في قضايا العمل والعمال، ومشكلات الرأسمال. فشاركت في إدارة "ميكا مانيزم" سياسي بالدرجة الأولى، ثم تأثر بديكتاتورية "البروليتاريا"، وفكرة نزع الملكية الخاصة، وتحريم الغني أنى كان مصدر غناه! فاشتغلت - بصورة لاشعورية - بعيداً عن منطق الإسلام، القائم على بناء عقود العمل على المبدأ الإلهامي الكلاسيكي العظيم: (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ). وتورطت في التلوث ببقايا النظريات الماركسية القائمة على تطبيع نفسيات العمال على الحق والكراهية والغش، بدل أخلاق التعاون والمشاركة والنصح. ومارست ما يسمى بـ "حق الإضراب"⁽²³⁾ دون تفقه في نوازلها، ولا تأصيل لأحكامها، وإنما اعتماداً على منشورات إنشائية، ضعيفة القيمة العلمية، صدرت

²³ لا ينبغي أن يُفهم من هذا أننا ضد حق الإضراب مطلقاً، ولكننا ضد التوظيف السياسي لمعاركه؛ بما يلحق الضرر بمصالح العمال من جهة؛ ويلحق الظلم والضرر بأرباب العمل والإدارات المشرفة على المصالح العامة من جهة أخرى؛ مما ينتج عنه خراب عام وفساد بالبلاد والعباد.

عن بعض الكتاب ممن لا علاقة لهم بالبحث العلمى المتخصص فى الدراسات الفقهية والأصولية.

وهكذا تورطت الحركات الإسلامية فى تأجيج إضرابات عن العمل - على طريقة التنظيمات الماركسية والأحزاب الانتهازية - للضغط السياسى على إدارات معينة؛ من أجل تمرير ملفات أخرى، لا علاقة لها بمصالح العمل والعمال، لا من قريب ولا من بعيد! فأسهمت بذلك - من حيث تدري أو لا تدري - فى تربية أبناء الحركة على الكذب والخداع، وسوء الأخلاق فى المناظرة والحوار. وما كان ينبغي أن تسابق اليسار نحو الهاوية! وكُلُّ ينفق مما عنده.

هذا، ولقد كان للوليد النقابى - غير الشرعى - فى صفوف الطلبة خاصة؛ أكبر الأثر فى تدمير البنية الخلقية لشباب الإسلاميين بالجامعة، ثم امتد الخراب إلى ما سواها من أجنحة العمل الإسلامى العام! ونظرا لخطورته، ولما سببه من تدمير مفهومي وتخريب خلقى، لبنية العمل الدعوى والتربوي لدى أغلب التنظيمات الإسلامية البارزة على الساحة المغربية؛ فإننا نعقد له مبحثا خاصا. وهو كما يلي:

الصنم "الأوطمي" واختيار الأخلاق فى الصف الإسلامى

إننى أشهد - كمراقب للمرحلة ومشارك فيها - أن العمل النقابى الطلابى فى التجربة الإسلامية، الذى ولد فى أواخر الثمانينات وبداية التسعينات - من القرن العشرين - إنما هو طفل لقيط! ولذلك فإن

عقابه قد أخضرت حتى كادت تسود؛ بما احتقن في جده سمها من
سحوم! وبيان ذلك هو كما يلي:

دخلت الحركة الطلابية الإسلامية معبد "أوطم". تلك المنظمة
النقابية التي تكون داخل أحشائها - من قبل - ألم الماركسي
الإلحادي بالمغرب، فانتصبت رموزه وصية على الجامعة المغربية لسنوات
ليست بالقليلة! فأسست لغته ثقافة النضال الطلابي ورموزه، وأنشأت
مراجعته وقوانينه، ثم صنعت أجهزته المفاهيمية. وصار ما أصد مدرته
مؤتمرات "أوطم" في مرحلتها اليسارية، من قرارات وشعارات، هو
الفصل في كل خلاف فصائلي، والمرجع في كل جدل كلامي. ثم
ورثت الفصائل الطلابية الإسلامية المنهجية المادية التي خلفها الماركسي
الماركسي المتطرف، والله تغلت بترس مانتها المصطلحية وجهازها
المفهومي، بحماس يؤسسه الجهل العلمي بالدين، والله حوى الانتمائي
الحزبي! وهكذا ولدت الحركة الطلابية "الإسلامية" لأمة متدينة وأب
ماركسي لينيني! فكانت نتاجا غير شرعي لأسوأ زواج عرفه التاريخ!
ولذلك انطلقت تبعل في مشيتها تبغيا! وانخرطت في معارك ضد العلم
ضد الأخلاق! فחסرت مصداقيتها عند الطلبة، والأساتذة، والإدارة
الجامعية، والناس أجمعين! وكان الإسلام بالجامعة المغربية - من حيث
هو قيم وأخلاق - هو الضحية الأولى لذلك الخطاب الفج والسلوك
الفظ الذي مارسه فصائلها! لقد عشت المرحلة الماركسية بالجامعة
المغربية طالبا، ثم عشت المرحلة "الإسلامية" مدرسا، فلم أر من الفروق

المنهجية بين المرحلتين سوى بدء الخطابات بعبارة: "بسم الله قاصدكم الجبارين!" ثم ينطلق الخطاب بعد ذلك يرهب بجهروته الطاغوتي أفئدة الطلبة المستضعفين! ويقصم الجهود العلمي للأساتذة والباحثين! على غرار ما عشناه في المرحلة الماركسية سواء!

وقد كان "فصيل العدل والإحسان" أول من بادر بالإعلان الرسمي عن نفسه كفصيل "إسلامي" بالجامعة المغربية؛ فكان - مع الأسف - أكثر حظا من غيره في التدنس بالتراث الماركسي اللينيني، في الخطاب والممارسة على المستوى النقابي!

ساعده في ذلك خلفيته الإيديولوجية المؤسسة لجماعته "العدل والإحسان"، التي ما فتئت تعاني - منذ نشوئها - عمة النظمام السياسي؛ بسبب مرض "التضخم السياسي" التصوري والمنهجي، الذي هيمن على فكر مؤسس الجماعة الأستاذ عبد السلام ياسين، كما بيناه مفصلا بأدلته في كتاب سابق²⁴). فانطلق الفصيل بذلك يستعرض

²⁴ يمكنك مطالعة دراستنا لقضية "التضخم السياسي" في الفكر الإسلامي، في كتابنا المذكور من قبل: (البيان الدعوي وظاهرة التضخم السياسي). وقد هدانا أحد طلابنا - مشكورا - كتابا لبعض "الياسينيين" يرد فيه على (البيان الدعوي)، لكننا لم نجد فيه - مع الأسف - من العلم إلا أشكاله؛ لما يعانيه صاحبه من التعصب الحزبي، والهوى الانتمائي، والتشنج في المناقشة والحوار؛ مما حجبته عن الدراسة العلمية الهادئة لأطروحة (التضخم السياسي). ولعله لم يفهم أصلا بعض ما قصدنا إليه. وأحسب أن الأمر في هذه المسألة أمر هداية - هادانا

مقولاتها السياسية في الساحة الجامعية، بصورة جعلته أكثر تعبيراً عن نشاطها من باقي أجنحتها. بل لقد أتى عليه حين من الدهر كما ماد أن يكون هو القاطرة التي تجر الجماعة بأسرها! لقد تضخم فصيل "العدل والإحسان" بالنسبة لجماعته، كما تضخم حزب "العدالة والتنمية" بالنسبة لحركته، حيث كاد الفرع أن يصير أصلاً.

لقد دخل هذا الفصيل المنظمة النقابية "أوطم" - أي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب - يقوده العمى العلمي، والهوى الانتمائي! ورفض مقولة التأصيل النقابي للمنظمة، مما نادينا به، ولبس كل أحلاسها بلا استثناء، كما أشهد على ذلك مراراً، من خلال محاورات رسمية مع بعض مسؤوليه على المستوى المركزي! مُصِرّاً على الاشتغال بالموجود - رغم فساد أدواته - إلى حين! بسبب أن القوانين "الأوطمية" في فظاظتها الماركسية كانت تناسب العنف النفسي الذي يلي الرغبات التنظيمية في تحطيم كل شيء! وانطلق الفصيل "الياسيني" في الجامعة المغربية مثلاً ربح عاد: (تُدْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ ۝ ١٨) (الأحقاف: 25)! مشغلاً بالأسلوب الماركسي في النضال الطلابي؛ فبرز في سوء الأدب، وتفرد في خرق الحياء! وأعطى النموذج المثالي بسلوكه الفجاء من الخطأ

الله وإياه - لأن الأطروحة التي عرضناها في الكتاب المذكور إنما هي من قواطع الكليات الدينية، وليس لنا فيها من الجهد إلا الجمع والترتيب، كالمذيبي بين معلوماً من الدين بالضرورة. وإنما الموفق من وفقه الله.

الأخلاق! مارس "العنف الثوري"، تحت تأثير مصطلح "القومة" التي لم "تقم" إلا على بقية الدين في رموزه ورواده! ومارس - مثل سلفه الماركسي - أسلوب تفريغ القاعات الدراسية، والمدرجات العامة من الطلبة والأساتذة بطريقة بدائية، لا أدب فيها ولا ذوق! واحدة عرف الكذب والخداع للجماهير الطلابية، بالزج بها في معارك وهمية! والخروج عليها ببيانات تضليلية؛ خدمة لمصالح حزبية ضيقة تحم الجماعة اليسارية في الخارج أساساً، ولا علاقة لها بالجامعة ولا بالهمل الطلابي! ثم مارس "دكتاتورية البروليتاريا" باسم "حكومة" التعاضديات! فعجباً لو وصل لقيادة الدولة باسم حكومة "الخلافة" ماذا كانوا يصنعون! وتفنى في الشتم والسباب، حتى كاد أن يصنع لنفسه في ذلك قاموساً خاصاً! وما كان ذلك "منهاجاً نبوياً" ولا أسلوباً لإنتاج الخير قط، لو كانوا يعلمون! وتطبع - كسلفه اليساري - بنفسية الصراع المَرْضِيَّة، وردود الأفعال المتشنجة، فلا ترى منه إلا وجوهه المعبوسة بئيسة! وأحوالاً مَرْضِيَّة تستحق الإشفاق! لا تكاد تتجاوز أحد رموزه حتى ينفجر بالشرارات، ويؤء بأسوأ العبارات! مارس الانتهازية السياسية؛ باستغلال رموز دولية كشيخ "حماس" أحمد ياسين، تقبله الله في الشهداء، واستغلال المظالم الدولية التي تحم كل المسلمين؛ ليستثمرها لحسابه الخاص، غير آبه بما تقتضيه مصلحة الأمة في المسألة، ولا حاجتها الحقيقية! عاش في أغلب رموزه جهلاً فظيلاً بالدين، وضع مرب المثال بحم في التخلف الدراسي، وتفوق في التأصيل لصناعة الغش في

الامتحانات! وكان أول فصيل إسلامي يبوء بـ يا ثم الله مع الحمد ي
للأستاذة المحاضرين والدعاة الإسلاميين من الكلام! وممارسة حقهم
الشرعي في التربية والتوجيه؛ لا لسبب إلا لك ونعم ذوي انتماءات
تنظيمية أخرى! وإن كنت أنسى فلا أنسى أبداً ما وقع للأستاذ الداعية
الحجة أبي زيد المقرئ الإدريسي في جامعة الدار البيضاء، ثم ما وقع
للأستاذ المجاهد المصطفى الرميد في جامعة تطوان، من إقصاء إرثه العلمي،
ومنع تعسفي من المشاركة في نشاط لم يكن طلبية (العدل والإحسان)
هم الذين أقاموه! وقد عشت - وأنا من المشرفين على العمل الطلابي
ساعتها - مأساة تخطيط اللوحات الإسلامية وتمزيق اللافتات الإيمانية،
بأيدي "الياسينيين"، بجامعة عبد المالك السعدي، وجامعة الحسن الثاني؛
تحت ذريعة حماية قوانين "أوطمية" جاهلية، ما أنزل الله بها من سلطان!
يررون بها فعلهم يا ويلهم! فيدخلون بذلك تحت سياط قول الله جل
علاه: (يُخْرِتُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ!) (الحشر: 2). كذلك، والله المستعان!
وما رأيت - في الإسلاميين - أقل حياءً من طالباته وطلابها، ولا
دوساً لأحكام الشريعة من رواده! يرفعون أصواتهم باسم الدين تصفيقاً
وتصديقاً في السماء، في حلقٍ وتظاهرات تعجن الفتيان بالفتيات، وتحتك
حجاب الحياء! ثم يدعون أنهم يعبدون الله تعالى بمثل هذا السفه؟ عجباً!
كيف؟ ونصوص الشريعة تدينهم صباح مساء! من مثل قول النبي صلى
الله عليه وسلم: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ أَلَّا يُؤْلَى إِذَا لَمْ يَمْ

تَسْتَحْيِي فَاَصْنَعْ مَا شِئْتَ!)⁽²⁵⁾. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيمَانَ قُرْبَانَا جَمِيعاً، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ!)⁽²⁶⁾ ثم عن أنس بن عمار - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقَهُ، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ!)⁽²⁷⁾

ولو كان هؤلاء يتلون القرآن حق تلاوته؛ لكانوا يشاهدون المنة مامة الإيمان العالي للفتاتين المؤمنتين في قصة موسى عليه السلام! ولأحفظوا كيف تراجعتا إلى الخلف؛ حفظاً لشرفهما، وصوناً لحشمتيهما، ومنعاً لكرامتهما من زحام الرِّعَاءِ والرِّعَاعِ! ولشهدوا كيف جاءت إحداهما إلى موسى تمشي على الله تحياء! لا على صفة لاف وكبرياء! ولا بـ "نضال" تدوس حوافره وأظلافه كل قيم الخير والحياء! قال الله جلَّ علاه: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ. قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا... الآية) (القصص: 23-27)

²⁵ رواه البخاري.

²⁶ رواه الحاكم والبيهقي. وصححه الألباني في صحيح الجامع.

²⁷ رواه ابن ماجه. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(23-25) فَيَا لَهُ مِنْ كَمَالٍ! وَيَا لَهُ مِنْ جَمَالٍ!.. فَعَجِبْنَا! كَيْفَ لَمْ يَشَاهِدَ هَؤُلَاءِ ذَلِكَ وَهُمْ - كَمَا زَعَمُوا - أَصْحَابُ (المشاهدات)؟! ثم إنهم لو كانوا يعرفون سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنهجه النبوي الحق لوجدوه - عليه الصلاة والسلام - يؤسس قِيمَ الأخلاق في المسجد؛ بفصل صفوف النساء عن الرجال، ويقول لأصحابه: (خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا. وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا!)⁽²⁸⁾، لقد كان ذلك الترتيب النبوي في بيت الله، لِمَا أَعْلَمَهُ اللهُ مِنْ أَنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ يَصْلِي فِي الصَّفِّ الْآخِرِ؛ فَيَنْظُرُ - مِنْ خِلَالِ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ - إِلَى امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ، كَانَتْ تَصْلِي فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنَ النِّسَاءِ! فَكَانَ الْأَمْرُ النَّبَوِيُّ لِلرِّجَالِ بِالِابْتِعَادِ عَنْ صُفُوفِ النِّسَاءِ! وَهُمْ فِي بَيْتِ الْعِبَادَةِ، وَحَالِ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ! فَمَا بَالُكَ بِتَجْمَعَاتٍ اقْتَضَتْهَا عَادَاتٌ لَيْسَ فِيهَا مِنْ رُوحِ الْعِبَادَةِ نَصِيبٌ؟ وَلَيْسَتْ أَدْرِي عَلَى أَيِّ تَوَرَّاةٍ أُمٌّ عَلَى أَيِّ زُبُورٍ اعْتَمَدَ هَؤُلَاءِ لِعَدَمِ الْفَتَيَاتِ بِالْفَتَيَانِ، فِي مَسِيرَاتِ السُّفَّةِ وَالْبَهْتَانِ!

فَاللَّهُ اللهُ عَلَى اخْتِيَارِ قِيمِ الدِّينِ بِأَيْدِي مَنْ يُفْتَرَضُ فِيهِمْ حِفْظُ "عَدَلِهِ وَإِحْسَانِهِ"! لَقَدْ تَحَطَّمَتْ قَوَارِيرُ الْأَخْلَاقِ عَلَى صَخُورِ تَقْلِيدِ "الرِّفَاقِ"!

فَمَاذَا بَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ لِهَؤُلَاءِ؟

²⁸ رواه مسلم.

لم ينفعهم تصوف الجماعة المزعوم في التربية والسلوك؛ لا سبب بسيط، هو أن التعبد لله الواحد القهار، لا بد فيه من اتباع سنة النبي المختار، بيد أن الأطروحة الياسينية انخرقت عن ذلك جميعاً، وغالت في توجيهها الخرافي بصورة ما كنا نتوقعها في زمن سابق قط! وليس عبثاً ما أن يُجمع العلماء على أن العبادة لله تعالى لا تصح حتى يُجمَعَ مع بهين وصفين: أن تكون خالصة لله في القصد، وموافقة للشرع في الصواب. وكل ذلك انخرم في التصوف الياسيني؛ فقد أضاع الإخـ ملاصـ بروز الشخصية في القيادات والشعارات! وأضاع الصواب بسبب الجهل بالشرعية وأحكامها في العبادات والمعاملات. وكل عمل خلا من أحد الوصفين فهو باطل! وقد تقرر في القاعدة الفقهية: أن "ما انبنى على باطل فهو باطل!" تأصيلاً لكل ذلك فيما تواتر - معنوياً - من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ!)²⁹، و(مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ!)³⁰. ومن هنا ارتفعت البركة عن أعمالهم، وسُحِبَت الربانية عن نضالاتهم! فلا نضارة ولا رواء! فتنة زلَّ على أيهم إبليس بالروى الاسـ تدراجية، والمشاهدات الشيطانية؛ حتى ظنوا أن العصمة قد حلت في أيهم! وأن الخلافة قد صارت إليهم! وما هو إلا تدليس وتلبيس، ووهمٌ خسيس!

²⁹ رواه مسلم.

³⁰ متفق عليه.

وقد مر في التاريخ من هم أفضل منهم قياما وصياما، وأكثر منهم تلاوة للقرآن وإحسانا، ثم قضى الله تعالى بِكِبْكِبَتِهِمْ في النار! وإنه ما كانوا يطالبون مثلهم ؛ (العدل والإحسان)! كما تصوروهما، لا كما هما في شرع الله ودينه الحق! وبذلك خرجوا عن أهل السنة والجماعة. وما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك عنا ببعيد. فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ - وَلَمْ يَقُلْ مِنْهَا - قَوْمٌ تَحَقُّ رُؤُونُ صَلَاتِكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامُكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلُكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ! يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ، أَوْ حَنَاجِرَهُمْ! يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ! فَيَنْظُرُ الرَّامِي إِلَى سَهْمِهِ، إِلَى ذِي صَلْتِهِ، إِلَى رِصَافِهِ، فَيَتَمَارَى فِي الْفُوقَةِ، هَلْ عَلِقَ بِهَا مِنَ الدَّمِ شَيْءٌ؟")³¹. ومثله حديث علي رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حَدَثَاءُ الْأَسَدِ نَانٌ، سُهُ خَفَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ

³¹ متفق عليه. الرَّمِيَّةُ: هو الصيد المرمي، والرِّصَافُ: مدخل الذئب من السهم. وقوله: "يتمارى" أي يتشكك هل بقي من الدم شيء؟ والفُوقَةُ: موضع الوتر من السهم. وقد شبه سرعة مروقهم من الدين بالسهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج منه بقوة وسرعة شديتين! حتى إنه لا يعلق بالسهم من جسد الصيد ودمه شيء!

حَنَاجِرَهُمْ! يَمْرُؤُونَ مِنَ الْمَدِينِ كَمَا مَايَمُ رُقُؤُا سَهْمُهُمْ مِنْ الرَّمِيَّةِ!...) الحديث⁽³²⁾.

وما هي إلا سنوات قلائل حتى أصبحت الجامعة المغربية أطلالاً خاوية على عروشها من كل قيم الخير والجمال! وصار رد الفعل للخطر على ذلك السلوك المتشنج الذي مارسه "الياسينيون" وغيرهم، هو انطلاق موجة الفجور السياسي، والانحلال الخلقي؛ نتيجة عكسية لعدة سنوات من الإرهاب الطلابي الذي مورس باسم الدين! فكأن الخاسر الحقيقي في تلك المعركة إنما هو الدين نفسه! فتحطمت الفصائل الإسلامية كلها في الجامعة المغربية، ولم يبق منها إلا مِرْقٌ من قطع غيار بالية! ترتطم صفائحها الصدئة بين الفينة والأخرى، فتصدر أصواتاً متحشجة بهذه الجامعة أو تلك، وهي تعيش لحظات الاحتضار! وخرج الفصيل "الياسيني" من الجامعة المغربية بتاريخ شهيق وسهول أسود!

وكنا نرجو ألا يقع "فصيل الوحدة والتواصل" - الذي تطور فيما بعد إلى مسمى "منظمة التجديد الطلابي" - فيما وقع فيه زميله "الياسيني" من مزلق ومهالك، ويقف بجرأة وقفة مراجعة للتراث "الأوطمي"، قبل التدنس بحممه السوداء، ولكنه - مع الأسف - انساق كصاحبه وراء البريق الشيطاني الذي استدرج العمل الإسلامي

32 متفق عليه.

عن وظيفته الحقيقية، وجَرَّه إلى سَفَه المهاترات الكلامية؛ فابْتُلِيَ هـ و
أيضا بكل ما ذكرنا عن الفصل الأول من أدواء وأهواء، لكن بدرجة
أقل. لقد صارت "منظمة التجديد الطلابي" - على سبيل وزان الحزب
السياسي سواء - تجلّياً من تجليات "المطيعية" مع الأسف!⁽³³⁾ رغم ما
كان يعتري مبادراتها من محاولات تصحيحية - من حين لآخر -
لكنها لا تستمر إلا قليلاً حتى تعود حلّمة إلى عاداتها القديمة! وظل
التصحيح حبيس الأوراق والملصقات الملونة!

ولقد شاهدت بنفسي سنة: 2000م، كيف كان الكذب الصراح
والبهتان القراح أساس خطابات طلابية في مؤتمرات داخلية، بما يخص
بعض رواد فصل الوحدة والتواصل؛ من أجل احتكار مناصب قيادية
داخل الصف الطلابي؛ لصالح تيار ضد تيار، في نفس الجماعة الواحدة!
وعلا العجيج والضجيج، واشتبكت الأصوات الفعّالة وأزهدت!
فشاهدت بعيني المصادقية الدينية تحترق في وجوه بعضهم؛ حتى صار
دخان الخيانة يزكم أنفي! فقلت في نفسي أهذا جمع (تتمة) نزل عليه
الرحمة، وتغشاه السكينة، وتحفه الملائكة، ويذكره الله فيمن عنده؟ أم
أنه جَمْعٌ للكذبة والشياطين؟ فضاقت صدري وانعقد لساني، ثم انصرفت

³³ "المطيعية": هي صفة منهجية تعتمد أسلوب المناورة والخداع في التعاطي
للشأن الإسلامي الحركي؛ نسبة إلى الأستاذ عبد الكريم مطيع، مؤسس حركة
الشبيبة الإسلامية المغربية، كما سيأتي شرحه مفصلاً في الفصل الخامس بحول الله.

عن القوم كاسف البال غير آسف؛ إلا على عُمرٍ ضاع مني في تيه به،
خارج أولويات الدين!

وهكذا صار العمل الطلابي "الإسلامي" - بكل فصائله - ضحية لبيعها في تخريج المتكلمين الجذليين، عاجزا عن تخريج العلم ماملين الرسمة مالبين! وكان أولى به أن يشتغل بما ينفعه في دينه حقاً، وينفع الأمة في مستقبلها صدقاً. كان حرياً به أن يشتغل بتداول نصوص القرآن الكريم، تلاوة وتدارساً، والتفقه في الضروري من سنة سيد المرسلين، لامتلاك الحد الأدنى من الثقافة الدينية الضرورية للدعاة العلم ماملين. ثم الانخراط في العمل الدعوي بين عموم الطلبة والطالبات، ومحاربة الفجور السياسي، والانهيار الأخلاقي، وبث الوعي بخطورة الكيد الإيديولوجي والتضليل الإعلامي... إلخ. كان المفروض في القطاع الطلابي أن يكون أكثر نشاطاً في المجال التربوي، وأكثر فاعلية في مجال دعوة الشباب إلى الصلاح، وتحمل الهمم الرسالي لهذا الدين. ثم كان المفروض - قبل هذا وذاك - أن يهتم بالمدارس الثانوية ليهيء الخلف من الراشدين؛ لحملة رسالة الجامعات والمعاهد الطلابية؛ حتى لا ينقطع السير في درب العمل الدعوي بالجامعة أبداً. كما كان المفروض أن يهتم بمدارس الأطباء العليا، والنخبة المعدة لحمل الشهادات المتخصصة، في مجال الدراسات الإعلامية، والقانونية، والاقتصادية، والرياضية، والفيزيائية، والهندسية بشتى فروعها، وألا يزرع بأمثال هؤلاء في مناهات (قيل وقال) وكثرة السؤال، وإنما يصنع منهم أطراً تحمل إيماناً عالياً بالله واليوم الآخر،

وتصدق في خدمة الدين والوطن، فمستقبل البلاد دائما رهين توجهه
النخبة التكنوقراطية والمتقفة، لو كانوا يفقهون!

ولكن تحاوى العمل الإسلامي الأصيل في الجامعة، ذلك المصريح
الأول الذي بنته - على قلة - الأجيال الطلابية الأولى، طيلة السبعينات
وأواسط الثمانينات من القرن الماضي، بلا نقابة ولا رابطة! وإنما بمجالس
تربوية إيمانية بانية، وبإصرار عجيب على القراءة المعمقة، والتمسك بصلع
بالصناعة العلمية الراشدة، في كل التخصصات، الدينية والإلحادية
والطبيعية! وهي آتت تدافع ظلما التي ماركت الماركسية وظلماتها!
والماركسية ساعتهما في أوج عنفوانها! وبذلك أنشأ الطلبة الإسلاميون
مدرستهم الأولى: (مِنْ بَيْنِ فَ رُثٍ وَدَمٍ لَبَدٌ مَا خَالَ صَبَابَهُ مَا تَغَا
لِلشَّارِبِينَ!) (النحل: 66) ولكن ما أن دخلت الفصائل البغيضة العميلة
الإسلامي حتى تلاشت العقلية التأصيلية والنقدية، وانسحبت العزيمة
الاجتهادية من الحرم الجامعي؛ لصالح الفكر الخرافي في بعض الفصائل،
والفكر الغنائي في بعضها الآخر! ثم تركت المجال فارغا للماركة
الاستقصائية، والتيارات العنصرية المأجورة؛ ثم لأ الجامعة بإرهاقها
المصطلحي! وسبابها المفهومي! وإقصائها للدين وأهله!

وكان المفروض في العمل الطلابي أيضا أن يفرغ أهل التخصصات
الشرعية من طلاب الدراسات الإسلامية، وكلليات الشريعة وأصول
الدين؛ للتحقق بوصف العالمية الحقة، بدراسة معمقة، والتفقه في الدين
بصورة متفانية؛ لتخرج أجيال من العلماء، إذ العلماء هم القادة للأمة،

وهم حياة الأمة، فإذا انقطع امتدادهم انقطع امتداد الأمة! ولكننا لا نرى من المتخرجين من هذه التخصصات الشرعية - مع الأسف الشديد - إلا طواير من الجهلة بعلوم الدين! وقد لا يمتلك أغلبهم من العلم الشرعي حتى الحد الأدنى من الضروري لعمل مادة رب العالمين! وذلك لفساد برامج التعليم الجامعي ومناهجها، ثم لرداءة معادن النماذج الطلابية الملتحقة بهذه التخصصات خاصة، وبأغلب شعب الجامعة المغربية عامة، لا سيما في هذه السنوات الأخيرة، إلا من رحم الله، وقليل ما هم! وذلك لانحياز منظومة التعليم بأسرها وفقدان مصداقيتها؛ قوة وأمانة في نظام التعليم الأساسي والثانوي بالمغرب كله!

فلماذا لم تناضل الفصائل الطلابية ضد هذا العبث الخطير الذي يعصف بالصناعة التعليمية بالوطن كله؟ وأشهد أنني ما رأيت - ولا مرة واحدة - مظاهرة واحدة، تخرج ضد فساد برامج التعليم، ولا ضد أستاذ يتغيب أو يغش، أو ضد مقرر دراسي هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع! أو ضد مكتبة فقيرة، قليلة المصادر والمراجع، سيئة الخدمات! نعم؛ شهدت مسيرات حاشدة ضد دسامة المقررات الدراسية، وغش البرامج التكوينية، وضد جدية سلم التنقيط، وصرامة ميزان التقويم، مما وضعته الأطر التربوية بالجامعة؛ لرفع المستوى العلمي، وتطهير الأداء الاجتهادي في الدرس والمتابعة. أما هذا وأضرابه فما رأيت أشد حرصا على تخريبه منهم!

وكان المفروض في القطاع الطلابي أيضا أن يقود حركة ديناميكية مستمرة؛ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل الجامعة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة إلى الله والتي هي أحسن، وهو الأمر الذي لم نره فيهم، اللهم إلا "حملات" عابرة، ينجزونها أحيانا بحجل، وكأنهم ينتظرون لحظة نهايتها؛ لينغمسوا من جديد في جدلهم البيزنطي ويسكروا بترهاته إلى إشعار آخر.

ثم كان من المفروض في القطاع الطلابي الإسلامي في نهاية المطاف، وبالتبع لا بالأصالة، وبالدرجة الثانية لا بالدرجة الأولى؛ أن يشتغل بالعمل النقابي التدافعي، والانخراط في المطالبة بحقوق الطلبة المادية، بعد تأمين حقوقهم التربوية. وكان يجب على الطلبة والمنظرين الإسلاميين لهذا القطاع أن يؤصلوا لثقافة نضالية جديدة، تتخلص من رماد التراث الماركسي الشقي، وتخرج من بلوى استنشاق دخانه، ثم تصنع مناضلين مؤمنين، تحبهم الإدارة أكثر مما تخاف منهم، وتتفاد بدخولهم عليها ما أكثر مما تتشائم! كان المفروض أن يُخَرَّجَ القطاع الطلابي الإسلامي قادة أقوياء أمناء، يتمتعون برفق في الخطاب، وبلين في السلوك من غير ضعف ولا خور، وبقوة ومناعة في غير عنف ولا شدة. وذلك هو فص الحكمة، التي حُرِّمَها هذا القطاع البئيس! فحُرِّمَ البركة كلها! ولو أنهم كانوا على شيء من ذلك لصاروا نماذج تربوية يُقْتَدَى بها، ليس للطلبة فحسب؛ بل لكثير من أساتذتهم أيضا، وكثير من الموظفين والإداريين! حتى إذا غادروا الجامعة حنَّت إليهم القلوب، وتعلقت بهم الذكريات!

لكنهم اليوم مع الأسف، ما غادروا - في الغالب - إلا وتخلصت من شرهم النفوس وتبعتهم اللعنات المخزيات!

لقد دُرِّسَتْ منذ أواخر الثمانينات من القرن الماضي بالجامعة المغربية إلى يومنا هذا، ولا أحد دخل عليّ - ولا مرة واحدة - من هذا الفصيل أو ذاك، فَتَصَدَّرَ منصة المدرج أو قاعة الدراسة؛ لإلقاء كلمة هادفة حول قضية الدين في الأمة بما هو عبادة لله رب العالمين أساساً، ورسالة للناس أجمعين. أو حول أهمية فريضة الصلاة، أو خطورة العري الفاجر، أو لصد هذا السلوك الساقط الذي يلتهم بأنبياءه الوحشية الشباب يومياً، داخل الجامعة وخارجها! أم أن هذا كله خطأ عظيم وعظي، ومنهج سطحي، وغيبات تعبدية ليست من أولويات المناهج الضال "الأوطمي"!؟ فإذاً مشكلتنا كما ذكرت مراراً هي في تحرير مفهوم "الدين" في أذهان الإسلاميين! فلو أننا حررناه حقاً، وصار كل العمل الطلابي قائماً على موازينه، ومرتباً على سُلَّم أولوياته؛ لكان للإسهام بالجامعة شأن آخر! ولتذهب - بعد ذلك - نُصُبُ "أوطم" وهياكلها إلى الجحيم!

وإنما كانوا يدخلون عليّ كما تدخل السباع - ولا أقول الأسود - لترويع الطلبة المستضعفين، وتفريغ المدرجات منهم تفريغاً، ثم الإلقاء بهم - قهراً - في تيه الضياع! يتسكعون في ساحات الكليات أو في الشوارع العامة! فكلما طاب الدرس وحل، وتدلّت ثماره ناضجة طرية فتهبّ الطلبة للقطاف الجَنِيِّ؛ دخل الفصائلون الظَّلْمَةُ، "المناضلون" ضد

العلم والنور؛ فحطموا دوالي الخير، وأفسدوا كل شيء! فأبادوا بيعة
الأمم في وظيفة الجامعة! وكانهم "يأجوج ومأجوج" ما بُعثوا إلا
لإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل! كذلك الأمر كما أن، والله
المستعان.

الفصل الثالث: استصنام "الشخصانية المزاجية" في الحركة الإسلامية

من أهم أسباب الوقوع فيما ذُكر من مظاهر الاستصنام غير ماب
القيادات العلمية الرسالية، والربانية الحكيمة. وقد صدى الزعامات
اللاعلمية لقيادة العمل الإسلامي، على المستوى العالي والمتوسط من
الهرم الإداري؛ مما أدى إلى استصنام "شخصاني" لتلك القيادات، وإلى
رسم معالم السير الحركي؛ بناء على مزاجها لا بناء على قواعد العلم
وأولوياته الشرعية!

والحركة الإسلامية اليوم بالمغرب رازحة تحت سيطرة سلطان شخصية
"المثقف" أو شخصية "التكنوقراطي". خالية من العلم وأهله إلا قليلا،
فإذا وجدوا فعلى مستويات لا تؤهلهم لقيادة العمل الإسلامي، علميا
وإداريا؛ فيخضعون لهم أيضا بصورة إرادعية لشخصانية القيادات
المزاجية. والحقيقة أن هذا الإشكال يتفاوت حضوره من حركة إلى
أخرى. لكنه موجود فيها جميعا على الإجمال.

وربما خلط بعضهم بين مفهوم "المثقف" ومفهوم "العالم" وكذا
مفهوم "الواعظ". فالتكنوقراطي قد يكون واعظا ناجحا، وقد يكون
مثقفا. كل ذلك بغير مجهود دراسي تخصصي، ولا احتراف منهجي،
وإنما بشيء من الدربة والمطالعة. ولكنه لا يكون عالما إلا بتفريط

تخصصي، وتوجه دراسي رسمي أو غير رسمي، ثم احتراف منهجي لما تخصص فيه وتخرج به؛ حتى يُحصَل صفة "العالمية"، بما هي ملكة وصناعة، كما بيناه في كتابنا: "مفهوم العالمية". تماما، كما أن الطبيب لا يكون طبيبا إلا بدراسة منهجية واحتراف علاجي. فالعلم دراسة وخبرة.

والمشكلة أن كثيرا من الناس - من غير أنهم مل العلم الشرعي المتخصص - قد خلطوا بين المفاهيم؛ بسبب ندرة العلماء الحقيقيين، أو بسبب غيابهم عن الساحة العامة والإعلامية؛ مما أدى إلى وضع الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب! وإلى تربيع بعضهم على كرسى قيادة العمل الإسلامي، وتقديمه على أنه (عالم) وما هو بعالم؛ وإنما صار كذلك بما خلع الأتباع عليه من الصفات ما لا يستحق!

إننا لا نعرف من الحركات الإسلامية البارزة في الساحة المغربية اليوم، حركة يقودها علماء حقيقيون، اللهم إلا ما قد حصل لبع ضحايا في فترات محدودة. وإنما واقع الحركات الإسلامية بالمغرب في الوقت الراهن أنها تتأرجح بين قيادة "المثقف" وقيادة "التكنوقراطي". سواء على مستوى القيادة العليا أو القيادة المتوسطة. وربما تؤهم أن الله تبارك وتعالى يعجزهم بالكتابة والتأليف في الفكر، أو في السياسة، أو في التصوف هو عين العلم، وهو صفة "العالمية"، كلا! فقد بينا في غير هذا الموطن أن

صناعة "التأليف" هي غير صناعة "البحث العلمي" المتخذ حصص³⁴.
 فذلك كله إنما هو عمل ثقافي، وصاحبه لا يعدو أن يكون مثقفا فقط.
 والصفة "الثقافية" هي غير "العالمية". وليس بالضرورة أن يكون كُـلُّ
 مُؤَلِّفٍ عَالِمًا. كما أنه ليس بالضرورة أن يكون كُـلُّ عَالِمٍ مُؤَلِّفًا.
 و"كروولوجيا" الإنسان الدراسية، وسيرته العمليّة بين العلماء
 وطلبة العلم، وكذا خبرته الاحترافية للصناعة العلمية، بحثاً في صلبه،
 وتدرّيساً لكتبه، وتكويناً لطلّبه، واجتهاداً في إله مكالاته، ثم إفتاءه في
 نوزاله؛ كل ذلك كفيلاً بكشف مدى استحقاقه لصفة "العالمية"، إما
 صحّة وإما بطلاناً.

وعليه؛ فغياب العلماء عن مواقع القيادة والتوجيه المباشر لأغلب
 حركات العمل الإسلامي جعلها تقع في استصنام "الشخصانية المزاجية"
 لمن قُدِّرَ أن يكونوا قادتها اليوم، على مستوى القيادات العليا والمتوسطة.
 وذلك ما أدى بها - في بعض أشكالها التنظيمية - إلى انحرافات شتى في
 مجالات أخرى. فقد تسبب لها الفراغ العلمي الرباني الراشد، في الوقوع
 بمستنقع الضلالات العقدية، والانحرافات السلوكية، والانحراف وراء
 الأهواء والبدع، في العقائد والعبادات، والبناء على مرجعية لا شرعية،
 تعتمد الأوهام الخرافية، في المنهاج التربوي والتخطيط الحركي، وفي
 استصدار المواقف والقرارات، وشتى ضروب الأحكام على الأشخاص

³⁴ أيجديات البحث في العلوم الشرعية، للمؤلف.

والمؤسسات. فكانت بذلك وسيلة إلى التلبسات الشيطانية المتن . نزلة
على كثير من روادها وأتباعها، في صورة "رؤى" و"مشاهدات"،
تناقض أحكام الشريعة وأصولها. وغير ذلك من البلاوى والتخبطات،
مما لا نعلمه إلا عن المبتلين بالمس الجني والتلبس الشيطاني، والعياذ بالله.
ومن هنا؛ وفي غياب القيادة العلمية الراشدة، أصبح كثير من
الشباب في هذه التيارات الخرافية وأضرابها يغتر بفهم سطحي لحديث
رؤيا النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام، الوارد بصيغ مختلفة، عن
عدد من الصحابة، من مثل ما وردَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (تَسْمَوُا بِاسْمِي وَلَا تَكْتُمُوا بِكُنْيَتِي، وَمَنْ رَأَى فِي
الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي. وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ
مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ!)³⁵. لذلك فإن بعض الجهال يُصدِّقُ
كل حلم شيطاني يتحلى عليه في أي صورة خادعة، وأي هيئة ذات
"أنوار" و"أسرار" - زعموا - على اعتبار أن ذلك هو شخص النبي،
حاشاه عليه الصلاة والسلام! وإنما الأمر فيه تفصيل شرعي وتقعي مد
علمي منذ القديم. فقد ورد حديث رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في
المنام عن عدد من الصحابة، بألفاظ مختلفة، وبطرق متعددة، منها ما
جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ
رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي. وَرُؤْيَا الْمُرُومِ

³⁵ رواه البخاري.

جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ))³⁶. وَعَنْ أَبِي سَيِّدٍ عِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (مَنْ رَأَى بِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنُنِي))³⁷.

والعلماء في هذا فريقان، الأول: يمنع استمرار ذلك بعد مجيء مل الصحابة رضوان الله عليهم؛ على اعتبار أن المخاطب بالحديث هنا إنما هم الصحابة وحدهم، لأنهم هم الذين شاهدوا النبي - صلى الله عليه وسلم - في حياته وصاحبوه؛ فتمكنوا من معرفة صورته وهيأته والتحقق منها، فإذا رأوه في المنام لم يكن لديهم شك أنه هو الله شخص النبي - صلى الله عليه وسلم - عينه، وتلك هي صورته على ما يعرفون منه في النهار مُعَايَنَةً. فلا إمكان إذن لتلبس الشيطان بصورة غير صورته والتجلي عليهم بها؛ زاعما أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ القوم على معرفة حقيقية به عليه الصلاة والسلام. وهذا كلام وجيه له حظ من قوة الاستدلال.

والفريق الثاني: يرى استمرار ذلك في الأمة إلى يوم القيامة. وهو الاختيار الذي نرجحه ولكن بقواعد العلم، لا بترهات الدجاجلة والخرافيين! وذلك أن إمكان الرؤيا المنامية لصورة النبي - صلى الله عليه وسلم - كما هو في نصوص الحديث الكثيرة عام غير مخصص، ومطلق

³⁶ رواه البخاري.

³⁷ رواه البخاري.

غير مقيد. وعليه؛ فلا يبعد أن يرى اليوم بعض الناس النبي صلى الله عليه وسلم؛ بشرط أن تكون الصورة التي رآها هي فعلا عين صورته، وذات هيأته صلى الله عليه وسلم. وهنا مزلق كثير من جهلة العباد، ومرتع كثير من أصحاب الدجل والأهواء. إذ يُصدِّقون كلُّ ثَجَلٍ شيطاني يتجلى على صاحبه، على أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم؛ باعتبار أن الحديث يمنع أن يتمثل به الشيطان أو أن يتكونه. وهذا غلط كبير! فقد يتكون الشيطان بأي صورة، ويتمثل في أي هيئة - من غير صورة النبي وهيأته - ثم يدعي أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم! والحديث لا يمنع أن يدعي الشيطان أنه هو النبي، وإنما يمنع أن يتمثل بصورته عليه الصلاة والسلام، وفرق بينهما كبير! بل لقد ادعى الشيطان أنه هو الرب! سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! وفي الحديث الصحيح أن المسيح الدجال سيدعي ذلك أيضا! فما بالك بادعاء النبوة؟

وعليه؛ فليس كل حلم يراه الإنسان على أي صورة كان متدالا على أنه هو النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه مشمول برؤيا الحق الواردة في الحديث، حتى ولو قال الشيطان لصاحبه: "أنا النبي" أو "أنا الرسول"! ولقد أضل الشيطان بهذا عددا كبيرا من الجهال، والله المستعان! بل لا بد لصحة رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام من

شروط علمية، ذكر بعضها الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام⁽³⁸⁾. وهي:

- أولاً: أن تكون الصورة التي رآها الرائي مطابقة لأوصاف النبي الخَلْقِيَّةِ الثابتة في وصف هيأته الشريفة عليه الصلاة والسلام، في كتب الشمائل المحمدية، على ما يضبطه أهل العلم بالحديث وفقهه.
- ثانياً: ألا تتضمن الرؤيا أمراً أو نهيّاً يخالف الثابت من نصوص الشريعة من الأحكام الشرعية أصولاً وفروعاً، ومن الحقائق الإيمانية والغيبية، مما جاءت به نصوص الكتاب والسنة. إذ أنه نسخ لا لذلك أو التغيير والتبديل ممنوع بالإجماع القطعي بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. والرؤيا الصالحة ليست أصلاً من أصول التشريع. وكل قول يخالف شيئاً من ذلك كان من البدع المنكرة! مردوداً على صاحبه بالنص صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام - المتفق عليه - من قوله: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ!) ومن هنا فإن شأن الرؤيا الصالحة مطلقاً - إذا وردت بتوجيه شرعي - ألا تتجاوز ما سبق ثبوته بالنص؛ لأنها - على حد تعبير الشاطبي - (كالتنبؤ لموضع الدليل)⁽³⁹⁾؛ ولذلك وجب عرضها على أهل العلم؛ للنظر في إشارتها

³⁸ الاعتصام: 260/1-264. طبعة دار الفكر.

³⁹ الاعتصام: 260/1

إلى موطن الحكم من كتاب الله وسنة رسول الله، فإن لم يكن لها ذلك المساع طُرحت، وعُلِمَ أنّها من الشيطان.

- ثالثاً: ألا تتعدى الاستفادة من الرؤيا مقاصد النذارة والبشارة لصاحبها خاصة، لا لعموم الناس، ولا للتخطيط لأحوال البلاد والعباد! كما يفعله بعض جهلة الإسلاميين في هذا الزمان. وكل شيء مخالف لهذه الشروط دل على أن تلك الرؤيا إنما هي كذب وبختان، وضرب من إيهام الشيطان!

هذا، وقد أغرب بعض الخرافيين فقالوا بإمكان رؤيته - صلى الله عليه وسلم - في اليقظة بعد موته عليه الصلاة والسلام! بناء على فهم سطحي لحديث أبي هريرة، المتفق عليه، وهو قوله رضي الله عنه: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ رَأَى شَيْئاً فِي الْمَمَاتِ فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي". قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا لَكَ بِهَذَا؟) [البخاري] قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: إِذَا رَأَاهُ فِي صُورَتِهِ. ومعنى الحديث - كما شرحه فقهاء الحديث - هو على أحد ضربين: إما أنه قد ماص بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، على أساس أن من رآه منهم في منامه فسيراه قصداً - بعد ذلك - في يقظته ويستقبله بخصوصه لأمر ما، وكان ذلك علامة على الإذن بتلقي توجيه ما، أو تنبيه ما، أو بشارة ما، في اليقظة بعد المنام. ولا يصح ذلك إلا لمن عاش زمن حياته صلى الله عليه وسلم. ومن هنا خصوا الحديث بصحابته رضي الله عنهم.

والثاني: أن يكون اللفظ على إطلاقه مستمرا إلى اليوم، فتكون رؤيا اليقظة وعدا منه - صلى الله عليه وسلم - وبشارة لصاحبها أنه سيراه يوم القيامة، ويفوز بزيارته في الجنة، أو بشفاعته، أو بالشرب من حوضه، سقياً بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم!

أما الزعم بأنه يراه يقظة في الدنيا جهاراً نهاراً وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام؛ فهو لعمرى جهل مكين وضلال مبین! لأنه من ناقض لقواطع الأدلة من الكتاب والسنة، ومما لم يؤثر قط عن أحد مدعي الصحابة والسلف الصالح أنه حدث له! فكيف يحدث في آخر الزمان لحثالة الناس؟! ذلك هو النقص الصريح لحقائق القرآن، وثوابت الإيمان من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مات، وأنه لا يخرج أبداً من قبره، ولا ينزل من برزخه إلى يوم البعث المعلوم. قال تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ!) (الزمر: 30-31). ولا يكون مدعي عكس هذا إلا مبتلى بتخبط الشيطان! والله وحده المستعان!

ولا يعكر على هذا حديث رد روحه عليه - صلى الله عليه وسلم - مما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي؛ حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ!)⁽⁴⁰⁾ فقد اختلف العلماء فيه اختلافاً كبيراً. وهو على كل حال خارج عن

⁴⁰ رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

محل الذم نزاع من مسألتنا؛ لأنه لا يُثبت للنبي صلى الله عليه وسلم علم خروجنا من القبر، ولا نزولنا من البرزخ، ولا تجلياً حياً في اليقظة على الناس. وإنما غايته أن النبي صلى الله عليه وسلم يهبه الله وعياً معيناً؛ لرد السلام على الناس، أو طبقة معينة من الحياة الأخروية على نحو ما هو ثابت من حياة الشهداء في عالم البرزخ، وهو ما يزال في موته المستمر، والحديث على كل حال استشكله كثير من العلماء⁴¹؛ لأنه يقتضي استغراقاً أبدياً في رد السلام؛ إذ السلام على مقامه الطاهر لا ينقطع أبداً، الليل والنهار! وأما الأحاديث التي تتحدث عن بقاء حياته صلى الله عليه وسلم، وخروجه من قبره؛ فلا يصح منها شيء، كما قال غير واحد من أهل العلم، بل كلها من قبيل الموضوعات!

والقول الختام في مسألة هذا الحديث أنه خير آحاد، ظاهره معارض لقواطع الأصول الكلية، من كتاب الله وسنة رسوله، إلخ الواردة في مسألة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويكفي أن هذا الوهم قد حصل لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند أول صدمة نزولت عليه بخبر موت الرسول صلى الله عليه وسلم! كما هو في صحيح البخاري وغيره، فردّه أبو بكر الصديق إلى الحق القطعي. وبيان ذلك هو كما يلي:

⁴¹ فتح الباري لابن حجر: 488/6، وشرح الزرقاني على موطأ مالك: 357/4، وعون المعبود لمحمد شمس الحق آبادي: 21-19/6.

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ٤١: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ، وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! قَالَتْ: وَقَدْ مَالَ عُمَرُ: "وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ!" وَلَيَبْعَثُهُ اللَّهُ لَهُ فَلَا يَقْطَعُنْ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ!" فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: يَا أَبَيَّ أَنْتَ وَأُمِّي! طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُدِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا! ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْخَالِفُ! عَلَى رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ. فَحَمِدَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ! وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ! وَقَالَ: "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ"، وَقَالَ: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ. وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ". قَالَ: فَتَشَجَّ النَّاسُ يَبْكُونَ (...). ثُمَّ لَقَدْ بَصَرَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ الْهُدَى وَعَرَفَهُمُ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيَّ بِهِمْ، وَخَرَجُوا بِهِ يَتْلُونَ: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ" (الحديث⁴²). وذلك هو القول الفصل (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق: 37). وإنما الموفق من وفقه الله.

أما مشكلة القيادة التكنوقراطية فهي أننا تعاني من غياب "الإمامة العلمية" ذات النظر الفقهي في تقدير المآلات الدعوية، والقديرة على بسط سلطانها الروحي على النفوس تربيةً وسلوكاً. والحقيقة أن هذه القيادة - رغم ذلك - أقل تعرضاً للانحراف المزاجي من القيادات الثقافية؛ بسبب الغرور الذي يصحب "المتقف" غالباً، والعُجب الذي يتلبس به في ذاته؛ مما يؤدي إلى الاستصنام الحركي لشخصانيته! وهو ما يقل عادة في شخصية "التكنوقراطي".

فغياب العالمية الربانية من قيادة العمل الدعوي وتوجيهه، يؤدي إلى عدم القدرة على الاحتضان التربوي الشامل للحركة وأبنائها. و"الأمم - كما يقال - على دين أمرائها". فملاية تصور أن تكون كل الوظائف التربوية والتأطيرية إلى "لجنة علمية" أو "خلية تربوية". فهذه إذا فساد ما بعده من فساد! وقد جربناه مراراً فما وجدنا فيه إلا إضاعة الوقت في غير طائل! نعم اللجان ضرورية حركية، ولكن تحت الإشراف المعنوي أو المباشر للعالم الحكيم الرباني. وإلا فستبقى منجزاتها وبرامجها لقيَ مُهملاً يُتلفه النسيانُ ويأكله البلى في رفوف مقرات الحركة هذه وهناك. وتبقى بعد ذلك جموع المنتسبين لها معرضة بصورة دائمة للاضطرابات التربوية، والاهتزازات الفكرية والتصورية!

ومن هنا تضخمت "الأنما الفردية" لدى كثير من أبناء الحركة، ثم طفت على السطح قيادات عالية ومتوسطة، تضخمت (أنماها) بصورة مرضية بغیضة، حتى إنك تجد أحدهم لا يستطيع أن يتحدث عن العمل

الإسلامي إلا من خلال نفسه! ولا يعرض منجزات الدعوة في الوطن - أو في جهته - إلا من خلال تجربته! لما يعاني من الرغبة المرضية الجامحة في تمجيد شخصه! وإشباع شهوة "بطولته"! وبناء صرح مجده! ولو تسمع له وهو يتحدث أو يحاضر لأمكنك أن تُعدَّ له من "ضمير الرفع المتكلم" - منفصلا ومتصلا - مئات العبارات...! من مثل: "أد ما قلت وأنا فعلت"! تماما كما قال إبل يس من قبل: (أد ما خيّر من منه!) (الأعراف: 12) وكما قال حليفه قارون: (إنما أوتيته على علم عندي!) (القصص: 78).

وإن تُعجَبَ فعَجَبٌ كيف يغامر أحدهم بتمجيد ذاته في الدين! على حساب قصد التعبد والإخلاص فيه! وما الدين إلا إفتاء "الأنا" في الله! فأبي مدرسة "إسلامية" هذه التي خرجت هؤلاء المشوهين في الفكر التربوي والممارسة الدعوية؟! أي جرأة صفيقة هذه التي تمكن أحدهم من استعراض بطولته الكاذبة، المُنانة على الله؟ والتباهي بأمر لا يملك تجاهه الجاهدون الربانيون حقا إلا التفاني فيه عن الذات والتكبر لحظوظها؟ حتى لا تكاد تسمع لأحدهم فيه نسبة خطوة واحدة إلى نفسه! مع أنه لا يكاد يجد للراحة من خوض غمار العمل الإسلامي الجاد سبيلا! قد اغبرت قدماء في ميدانه، وتعددت أدواؤه بما أهلى من جسده في سبيله! داعيا إلى الله هنا وهناك! ولا استطاع أن يتكلم عن نفسه بكلمة واحدة! ثم نبتت نابتة سوء من الإسلاميين - زعموا - تدعي أنها قد قلبت الدنيا رأسا على عقب، وأن الفضل كله يرجع إليها

في التمكين للدين ونصرة سيد المرسلين! وأن كل من صلح أمره من المسلمين إنما هو بجهدهما! وأن كل من صلى وصام إنما هو بفَضْلها! يتبحرون بذلك - أفرادا وجماعات - ثم لا يستحون! عَجَباً، عَجَباً! فأَيُّ جرأة على الله هذه وأَيُّ تَعَدُّ على سلطانه؟! أولاً يعلمون أن في أمثالهم نزل قوله تعالى: (لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ!) (آل عمران: 188).

تضخمت "الأنا التنظيمية" في الجماعات، ثم تضخمت بداخلها "الأنا الفردية" وتمجدت الذوات! وبسبب ذلك لم تنقطع حركة التمرد الفكري بهذه الحركة أو تلك، وحالات الشرود التربوي، والشبه الخُلقي، وإنشاء الأتحاف المعاكسة، والجيوب المرضية، والتيارات الشاذة داخل البناء التنظيمي للحركات الإسلامية. وقد تمتد الأمراض من حركة إلى أخرى، أو ربما انفصلت عنها جميعاً لتصنع مزقاً آخر يرى خارجها! ولذلك ظهرت بؤر سرية لبعض الفرق الضالة، كالمشيعية الروافض، وجماعة الأحباش، ومنهم من ارتكس إلى الطرق الخرافية، معرضاً عن التصوف السني الأصيل! بل منهم من انسحب من الدين مخائلاً ليتخصص في الشعوذة والدجل الخرافي! ومنهم من ارتقى في أحضان جهات مشبوهة تمتد خيوطها الخفية خارج الوطن، فانخرط في مشروعات الاستعماري، يكتب لها التقارير وينجز لها البحوث؛ فتُخربُ باسمه ما لم تستطع أن تخربه باسمها! ومن هنا بدأت تطفو على سطح

تلك المستنقعات الآسنة مقولات رافضية، وأخرى باطنية، كسب الصحابة رضوان الله عليهم، والطعن في كتب السنن الثابتة كصحيح البخاري، والتشكيك في بعض أصول المرجعية الإسلامية، وبعض أحكامها المتواترة، سواء على المستوى العقدي أو المستوى الفقهي؛ تحت غطاء "حرية التعدد المذهبي" تارة، وتحت غطاء "البحث العلمي الأكاديمي" تارة أخرى؛ تلبيةً لأهواء مذهبية دخيلة، أو خدمة لأغراض استعمارية تمتد خيوطها الخفية إلى جهات معادية للدين والوطن، ولا علاقة لها بالعلم ومناهجه البتة. وانتشرت رائحة العمالة والخيانة، والزندقة - بمعناها الإيديولوجي - من تحت ثياب رموز كانوا إلى عهد قريب أطراً في الحركات الإسلامية، أو قادة في قطاعها الطلابي!

فكل هذا العجب العجائب خرج من تحت جلباب الحركة الإسلامية، التي فقدت كثيراً من موازينها؛ بفقدان القيم وماديات العلم والراشدة والحكمة، الموجهة لمسارها العام على المستويين: الفكري والتربوي. والله المستعان.

الفصل الرابع: استصنام التنظيم "الميكانيكي"

نقصد بالتنظيم الميكانيكي: الأسلوب الإداري التنظيمي الذي يعتمد البناء الهرمي العمودي في إدارة العمل وتسييره، حيث تتركز هياكله بعضها على بعض على سبيل التحكم الميكانيكي بين قطعها، فلا يتحرك الأدنى إلا بحركة الأعلى، والعكس غير صحيح. وهو أسلوب إداري اقتبسته الحركات الإسلامية المعاصرة من نظام الأحزاب السياسية. وقد كان الإمام حسن البنا - رحمه الله وتقبله في الشهداء الأبرار - هو أول من أنشأ تنظيمًا ذا طابع ميكانيكي؛ عند بناءه لجماعة (الإخوان المسلمين) بمصر، ثم ندم عليه من بعد ما وقف على خطورته التفلتية، على المستوى التربوي والإداري، حيث انفرط عقد القيادة من بين يديه، وانخرط ما سمي بـ "النظام الخاص" في سلسلة من الاغتيالات أدت بالجماعة إلى فتن ومصائب، ما تزال تتجرع مرارتها إلى اليوم!⁴³ فقال الإمام البنا - رحمه الله - مقولته المشهورة: (لا تستقبلت من الأيام ما استدبرت لعدت بالإخوان إلى أيام المأثورات!) إشارة إلى رسالته التربوية الصغيرة في الأذكار، أيام عكوف الإخوان عليها وعلى المجالس القرآنية كـ "حديث الثلاثاء" وما شابهه.

⁴³ انظر كتاب: "الإخوان المسلمون والنظام الخاص: النقط على الحروف" لمؤرخهم الأستاذ أحمد كمال.

والحركات الإسلامية بالمغرب - كأغلب الحركات في العالم - اعتمدت نفس النظام الإداري مع بعض التغيير الطفيف الذي لا يمس الجوهر في شيء. بل قد كان الاقتباس إلى الحرفية أقرب عند بعضها، حتى بالتسمية للهياكل الإدارية والبشرية كما صطلح "الشُعَب" و"النُّقَباء"! وقد تطور قليلا عند جهات أخرى ليقترن أكثر من الأنظمة الحزبية الحداثية ذات البناء الهرمي والتركيب الديمقراطي. وههنا يكمن الإشكال الاستثنائي. ويتجلى ذلك في ظاهرتين مرضيتين:

- الأولى: استئناس "الأنا" الجماعي:

ففي جميع الأحوال يعاني التنظيم الميكانيكي من مشكلة التفوق مع الحزبي؛ بما يشكل لديه فضاء داخليا مختنقا، لا يتيح للمنتسبين إليه أن يتنفسوا خارجه. فالدوران الآلي للهياكل التنظيمية يجعل العمل كله يتحرك داخل دائرة مغلقة واحدة، لا تسمح بالإبداع ولا التطور الداخلي. مما يربي في الأفراد تضخم الشعور بـ "الأنا الجماعي" - بالمعنى الحزبي الضيق - الذي هو وسيلة للشعور بـ "الأنا الفردي".

ومن هنا يصير التنظيم - بهذه الصورة - وسيلة لاشعورية لبناء وهم (الجماعة الإسلامية الكبرى)، المتعالية عن الخطأ، وعما فيه الأمة من تدهور وهوان. فينمو فيهم الشعور بأنهم الأصملى، وأن على غيرهم أن يكونوا لهم تبعاً. فتنصب الجماعات معرضة لآثار تعارض العلاضلات الحزبية تلبية للشعور المرضي بالنقص، ومعالجة للإحساس بالهوان فيما تعانيه الأمة من جراح ومأس. ومن هنا يتضخم الإحساس

بالتنظيم على حساب الإحساس بالإسلام نفسه! فتتجه سائر الأعمال الدعوية لخدمة الجماعة حتى ولو تعارضت مع أحكام الشريعة في بعض الأحيان! لأن تضخم الشعور الحزبي و"الأنا الجماعي" يملأ أفق النظر في ذهن الأفراد، فلا يرون إلا ذاتهم التنظيمية، وأجهزتهم الحزبية، التي تصبح هي المقياس للحق، وليس الحق هو المقياس لها! فكيف تل تصرفات الجماعة حق، وكل بياناتها حق، ومن هنا فكيف تل تنبأط شرعي خالفها فهو باطل، وكل حكم شرعي ناقضها وجب تأويله لصالحها! وذلك ما قصدناه بالاستصنام التنظيمي.

– الثانية: استصنام الهوى الديمقراطي:

ومن ذا يستطيع انتقاد الديمقراطية في هذا الزمان؟ وما هي ذي تتربع على عرش الفكر السياسي في كل مكان! وتمسك بيدها صولجان السلطان في أعظم البلدان! أليست هي زبدة الفكر البشري في تنظيم الشأن السياسي؟ أليست هي أساس نخضة أوروبا وسر تفوق أمريكا؟ ثم أليست هي ما تحلم به الجماهير في العالم العربي والإسلامي بهذا العصر؟ أليس بها تُضمَّن الحقوق وتُصان الحريات للأفراد والجماعات؟ فما إذا يشينها إذن وما يثلمها؟

ولكن؛ أليست الديمقراطية هي مبرر الغزو الأوروبي/أمريكي لبلاد المسلمين؟ أليست هي مسوغ نهب الثروات؟ ومنطق انتهاك الحرمات؟ وتفزع الروعات؟ وتدمير العمران وسائر المنشآت؟ وماذا غيرها شرع فينا كشف العورات؟ وتمجيد المنكرات؟ فمن تكلم تهدم، ومن سكت

تألم! أليست هي التي أطلت علينا بأنبياء وحرايبا فشردت إل صالحين الأبرياء ومحدثت الظالمين الأشقياء؟!

ثم أليست الديمقراطية اليوم هي الدين الوضعي البديل عن دين السماء لكثير من الناس؟ أليست هي مزامير أمريكا؟ بأياتها تتغنى الإذاعات، وبكراماتها تتباهى الفضائيات! تفرضها على المسلمين فرضا! وتضربهم بسياطها طولا وعرضا! فباسمها تغزو بلادهم، وينارها تحرقُ حقوقهم، وتخرب ديارهم، وتيتم أطفالهم! حتى إذا رضى حوالها واستسلموا، وظنوا ألا ملجأ منها إلا إليها، وأن اللعبة حق؛ فتمخضت بحريتهم الساذجة عن انتخاب رجال مؤمنين لتهدير الشأن العام؛ غضبت عليهم أمها ومزقتهم شر ممزق بين السجون والمناقي! وصرخت فيهم: "ويلكم! ألم أقل لكم: إنما هي (لعبة الديمقراطية)! فكيف تجدون في استثمارها؟"

لقد اصطبغت الديمقراطية بالميكيافيلية في الفكر السياسي المعاصر، ودخلت فيها، كما (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة)⁴⁴، مع فارق الشبه في المجال والمقاصد والغايات، وذلك على كل المستويات العالمية والمحلية. وتلك قصة أخرى ليس هذا مجال تفصيلها.

⁴⁴ هو لفظ حديث نبوي شريف رواه مسلم، ولأحمد زيادة فيه، قال: (ثم أنشَبَ أصابعه بعضها في بعض).

وقدس الناس الديمقراطية الليبرالية تقديسا، سواء فيما هي صالحة فيه، أو فيما ليست فيه بصالحة! واعتبروها "نخاية التاريخ"! فلا أحد يستطيع انتقاصها ولا انتقادها، ولا التمييز بين خيرها وشَرِّها. حتى صار المساس بمحارمها أو انتقاد آلياتها، كانتقاد "الكيان الصهيوني" في أوروبا أو أمريكا! من كبائر المحرمات وأخطر المهلكات! ومن زعم ألا دلالة للاقتران فليتقدم للامتحان! والله المستعان!

ووقعت الحركة الإسلامية أيضا في الفخ! فاسم تنوعب تنظيمها الميكانيكي زبور الديمقراطية، وأدى صلاتها، وأتقن خشوعها، وأحسن سجودها وركوعها! وانطلقت التنظيمات تبني هياكلها بصورة ديمقراطية، لتقدم النموذج الأجلى لحركتها والمثال الأعلى لخبرتها. فتخرجت الأجيال الجديدة من مدرستها تتقن كل ألعابها! ونشأت بينهم الحيل الديمقراطية، "على مذهب أبي حنيفة"! والمصالح الديمقراطية "على مذهب مالك"! فتكونت في صفوفهم الأحملاف الديمقراطية، والمناورات الديمقراطية، ثم أتقنوا "اللعبة" حياكة وصياغة! فتسلل بعض سفهائهم - بديمقراطية - إلى مواقع قيادية، ومناصب ريادية! فأوردوا الحركة موارد الهلاك بديمقراطية! ونسوا أن الأمر دين! يا ويلهم! وأن الدعوة إلى الله عبادة! إنما يتقن دم قيادتها أعلمهم بالله وبشريعته، وأفقههم في الدين وفي مقاصد الله، وأدراهم بالواقع ومآلاته! الجامع بين العلم والحكمة، مُعَلِّمٌ رَبَّانِي، وقدوةٌ رحمانِي. وليس أصخبهم صوتا، وأوسعهم صيتا، وأدهاهم مناورة، وأمكرهم خدعة!

إن مشكلة الحركة الإسلامية ذات التنظيم الميكانيكي أنها وضعت الديمقراطية بألياتها في غير موضعها؛ فانتخبت رجالها ما بأصوات عوامها؛ لوظائف الشورى ووظائف التشريع الدعوي والتوجيه المنهجي الإسلامي، بشروط الديمقراطية لا بشروط شرع الله! فتقدم دهاة السفهاء وتوقف حكماء الفقهاء! ومن يدري؟ فلعلها غدا تنتخب إمام الصلاة لخراجها! فتأتم بالأمكر الأشقي، لا بالأقرأ الأتقي! أم أنها تفرق بين هذا وذاك كما فرق أهل الردة بين الصلاة والزكاة؟! كيف والأمر كله دين؟

ولقد رأينا في مواطن شتى للحركة الإسلامية، كيف تسلق متسلقون المدارج الخفية للديموقراطية، وخذعوا جماهير الحركة بعبارات براقات، فصنعوا أغلبية من رأيها العام، يسوسونها كما يسأس العوام! ويزجرونها كما تُزجر الأنعام! فإذا أنكرت أو اعترضت قيل لك: تلك نتيجة الفرز الانتخابي! فإن قلت: ولكنها نتيجة سيئة! قيل لك: تلك طبيعة العمل الديمقراطي! ثم لن تستطيع إضافة شيء! وإلا كنت ممن يهالكون! فمن يجرؤ على انتقاص الديمقراطية؟! ألا فتعسأ لهم ولم ما يعبدون من دون الله!

لقد كان حريا بالحركة الإسلامية أن تستلهم تراثها التنظيمي من كتاب ربها، ومن سيرة نبيها، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم من حركات التجديد عبر تاريخها. ولا حرج أن تقتبس من نظم الآخرين ما لا يتناقض وشرعية القرآن، في تربية الإنسان وتحديد العمران؛ بشرط وضعه في محله، و"استصلاحه" مما علق به، من خلفيات وثنية،

ومنهجيات استصنامية. فإنما شأن الدعوة الإسلامية أنما دين، وليست شيئاً "ميكانيكياً" كسائر المنظمات والأحزاب. فلا قيام لها إلا به أن تكون كل أجهزتها تحقق - بذاتها - للعاملين بها فضاءً لعبادة الله، أداةً وقصدًا، ووسيلةً وغايةً. إنَّ "منظومة علوم القرآن" وكذا السيرة النبوية الصحيحة، تتضمن منهاجاً تشريعياً واضح المعالم؛ لتنظيم العمل بالدعوة الدعوي، وترتيب أولوياته. فلا بد للعاملين من استثماره، وإلا شط بحم الانحراف عن المنهاج النبوي الحق بعيداً عن الهدى السني الأصمى في مشروع تحديد الدين.

إن "التنظيم الفطري" هو البديل الأصيل! للعمل الإسلامي والبناء الدعوي. تنظيمٌ خال من المراتب والألقاب، ولا مجال فيه للأحلاف والأقطاب! ولا مكان لبناء التماثيل والأنصاب! يُقدّم الأهم يوم ديناً والأكفأ خبرةً. وتُجمع كل المهام في ملفات واضحة، ثم تُسند الاختصاصات إلى أهلها. بلا لغو انتخابي، ولا عبث ديموقراطي. وإنما الشورى الإسلامية المتأنيّة الهادئة - بين الحكماء الحلماء - هي أساس الترشيح للوظائف والمهام، بلا تشنُّج ولا تغشُّج! وبلا صخب ولا غضب! والعمدة في نجاحها إنما هو على مصداقية أصحابها ببطا وعدالة، وقوة وأمانة. فيقدّم العلماء الرساليون، ويُساعدهم الخيرة الربانيون. في دائرة واحدة، ذات سطح واحد متساوي الإشعاع، أو مربع واحد متوازي الأضلاع، لا أهرام فيه ولا مناصب، ولا مغام ولا مكاسب. البذل والتضحية شعار من أثبلي بشيء من خدماته. ينفق من

نفسه ووقته وماله. لا ينتظر جزاءً إلا من الله، ولا أجراً إلا على الله! هم الأساس مصيره في الآخرة، وادخار رصيده للحياة الآجلة. ثم تُحطَّم تلك البيروقراطية الميكانيكية الثقيلة، التي تستهلك الجهد والطاقات في كثرة الكلام وتعاقب اللقاءات، ثم لا تنتج في النهاية إلا جمعة بلا طحين، وصلصلة دون فتح مبین! ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

الفصل الخامس: استصنام العقلية "المُطِيعِيَّة" وإفشال الوحدة التاريخية للحركة الإسلامية

نقصد بالعقلية "المُطِيعِيَّة": ذلك المنهج الحركي القائم على أسلوب المناورة والخداع، في التعاطي للشأن الإسلامي من الناحية التنظيمية والإدارية. وهي صفة منسوبة إلى الأستاذ عبد الكريم مُطِيع، المؤسس الرئيس والقائد الأول لحركة الشبيبة الإسلامية، التي تأسست بالمغرب في أوائل السبعينات من القرن الميلادي الماضي. وقد كان للنظريات اليسارية التي تأثر بها الأستاذ مطيع - باعتباره قيادياً سابقاً في أحزاب الاشتراكية - أكبر الأثر في طبع منهجه الحركي بماذا الأسلوب الخطير، المناقض للثوابت الشرعية في الدين.

ورغم الانحياز التنظيمي للشبيبة الإسلامية في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، وتمزقه إلى شظايا تنشط هنا وهناك، فقد ورث بعض الأفراد الصفة المطيعية في تدبير الأمور الحركية في العمل الإسلامي. ونظراً لكون تلك الشظايا قد أسهمت في تكوين أغلب التنظيمات الإسلامية الناشئة فيما بعد؛ فإنها نقلت العدوى إلى كثير منها، على تفاوت فيما بينها. وكانت سبباً في تفريخ العقارب الخضر داخل الصف الإسلامي. وقلما سلمت جماعة حركية من ذلك، إلا من رحم الله.

وعليه؛ فليست "المطيعية" خاصة بمن أدرك الـ شبيبة الإسلامية وتطّبع بأخلاقها فحسب؛⁽⁴⁵⁾ بل صارت صفة تتجلى - بعد ذلك - في كل من سار على المنهج نفسه، من الأجيال الناشئة بعدُ في الحركة الإسلامية. ورغم أننا قد عانينا من متاعب التصرفات المطيعية لسنوات، في ظروف التعامل مع عدة تنظيمات إسلامية داخل الساحة الجامعية وخارجها - كما سيأتي بيانه في إشارات - إلا أننا سنقتصر في هذا الفصل على بيان آثار الاستصنام المطيعي على "حركة التوحيد والإصلاح" خاصة، وما كان لها من تأثيرات سلبية أدت إلى إفراغ وحدتها التاريخية من محتواها! وبيان ذلك هو كما يلي:

لقد كان للتضخم السياسي الذي رسمه نخته العقلية المطيعية في "حركة التوحيد والإصلاح" - الذي آل في النهاية إلى التجسّد في صورة "حزب العدالة والتنمية" - أحد الأسباب الرئيسة في إفراش الوحدة الداخلية للحركة، التي دشنتها مجموعة من الجمعيات الإسلامية بالمغرب ذات الخلفيات الاجتهادية المختلفة. ونعني:

- أولاً: "حركة الإصلاح والتجديد" (حاتم)، وهي الوريثة الكبرى لحركة "الشبيبة الإسلامية". والحقيقة أنما بذلت مجهوداً كبيراً في

⁴⁵ ليس المقصود أن كل أعضاء الشبيبة الإسلامية كانوا على الـ صفة المطيعية، كلاً! بل كان منهم إسلاميون حقيقيون وربانيون صادقون. والتعبير في بداية الفقرة السابقة أعلاه واضح بتخصيص البعض دون الكل.

التخلص من الآثار السلبية الكثيرة التي خلفتها حركة الشبيبة على العمل الإسلامي بالمغرب، وقطعت أشواطاً ومخاضات شتى من أجل تحسين تصوراتها وآلياتها، من المرحلة الشببية السرية، إلى مرحلة الشطايا، إلى مرحلة "الجماعة الإسلامية"، ثم مرحلة "حاتم". ومن أهم إنجازاتها الإيجابية أنها خلّصت أبناء الحركة من عقدة الارتكان بمنهجية النظام السياسي المغربي، تلك العقدة التي ورثتها الحركة الإسلامية من حركة الشبيبة الإسلامية "المطيعية"، ذات الأصول الماركسية من الناحية المنهجية. وأسست منهاجاً أقرب إلى التوازن والاعتدال في إصدار مواقفها السياسية. وإن كان يعاب عليها من شيء، فإنما هو عدم التخلص بعض أجنحتها من العقلية المطيعية في تدبير العمل الحركي.

- ثانياً: حركة "التبيين" التي تسمت في وقت لاحق بـ "جمعية الشروق" لأسباب أمنية. وهي مجموعة من الشباب الأذكياء الأتقياء، كانوا ضمن حركة الشبيبة الإسلامية ابتداءً. وفي مرحلة الفتنة الشببية، وتورط الحركة في مزالق خطيرة تجرمها الشريعة والقانون؛ مما نتج عنه اضطرابات داخلية، واتهامات متبادلة بين هذا وذاك، بعد فرار الأستاذ عبد الكريم مطيع من المغرب؛ تكونت أحلاف وفرق داخل الجحيم الحركي الشببي، فصار بعضها يلعن الآخر! في فتنة رهيبة وصدمت إلى حد محاولات الاغتيال للإسلاميين فيما بينهم! هنالك اعتزلت مجموعة "التبيين" تلك الفتن كلها؛ عملاً بقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ

نادمين) (الحجرات: 6). فكانت بذلك أحد سنن الف رق وأقرجه ما إلى الصواب؛ ولذلك بارك الله في خطواتها بعدد، وأنتجت - على قلة - جيلاً من الشباب المؤمن المثقف، طيب المعشر، طاهر المَخَبَر. وفي تقديرى لو قُدِّرَ لهذه الحركة أن تستمر في منهجها باستقلال؛ لكان لها اليوم في المغرب شأن عظيم. وأحسب أنها تضررت بالوحدة الوهمية أكثر مما استفادت. كما سنبن بحول الله.

- رابعا: "الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير" التي كانت تنشط في معظم مدن الشمال. وهي جمعية استفادت من الاحتكاك بجماعة التبليغ، رغم استقلال قادتها عنهم. فقد كان لوجود مسجد الف متح بالمدينة - وهو مركز هام للجماعة على الصعيد الوطني - أثرٌ بالغ على الطبيعة التربوية للشباب، فكانت الجمعية تضيف إلى ذلك تكوينا ثقافيا وسياسيا، فصار لها نوع من التكامل، لولا ما كان ينقصها من عدم التحقق بعد التخلق؛ مما سبب لها بعض التساقطات لأفرادها ما على المستوى القيادي أحيانا.

- خامسا: "جمعية الدعوة الإسلامية" بفاس، التي كانت تنشط في مجال تكوين الأطر التربوية والتعليمية والإدارية. وقد كان لطابعها الأكاديمي من جهة، ولبرامجها التربوية المرتبطة بالنصوص القرآنية من جهة أخرى؛ الأثر الأكبر في تخريج أطر تربوية متميزة على الصعيد الوطني. كما كان لمنشئها التاريخي المستقل، ولاجتهادها المحلي المتميز، وتأثرها بالإرث العلمي والتربوي لبقية صالحة من علماء القرويين،

أفضوا إلى ربحهم بعد ذلك رحمهم الله، الأثر الكبير في تميز جمعية فاس بصفتي العلم والحلم في تدبير الشأن الدعوي. وما عيبَ عليها شيء سوى تفوقها الأكاديمي وعدم تبلورها على المستوى الاجتماعي والدعوي العام. ومع ذلك أقول: لو قُدِّرَ لهذه الجمعية أن تستمر مندجة في العمل الواحدوي لكانت الحركة الإسلامية بالمغرب اليوم أغنى وأقنى!

- سادسا: مجموعات الشُّطَّاء: لم يكن هذا اسما حركيا لتنظيم ما، ولكنه مصطلح وضعناه للدلالة على عدد من المجموعات الإسلامية الصغيرة، التي تناثرت عن "حركة الشبيبة الإسلامية" بعد انفجار تنظيميها وتمزقه فرقا وأحلافًا. فقد كانت هناك - إلى جانب ما ذكرنا من حركات - مجموعات إسلامية شتى، تنحصر نشاطاتها - في الغالب - في حدود حي واحد من الأحياء بالمدينة الكبرى، لا تتعداه إلى غيره إلا قليلا. وأغلب تحلي هذه الظاهرة كان بمدينة الدار البيضاء. حيث حافظت كثير من الشطايا على نفسها مستقلة بمنهجها التربوي والتنظيمي لعدة سنوات. لكنها لم تستطع التبلور في مؤسسات حركية كبرى، وإنما ذابت بعد ذلك في الجماعات الإسلامية الأخرى. فمنها ما التحق بجماعة العدل والإحسان، ومنها ما التحق برابطة المستقبل الإسلامي، ومنها ما التحق بالتيار السلفي، ومنها ما تساقط وتلاشى! ومن أهم المجموعات التي اشتهرت في الدار البيضاء: "مجموعة عين السبع"، و"مجموعة الحي المحمدي" و"مجموعة درب السلطان"، و"مجموعة سيدي مومن"، وغيرها.

إلا أن أهم المجموعات التي ساهمت في بناء الوحدة الحركية بالمغرب، في صورة "رابطة المستقبل الإسلامي" أولاً، ثم في صورة "حركة التوحيد والإصلاح" ثانياً، مجموعة الأستاذ المصطفى الرميدي، ومجموعة الأستاذ عبد السلام بلاحي. وأشهد أن المجموعتين كانتا من أنظف شظايا حركة الشبيبة الإسلامية، وأخلصها للعمل الإسلامي. أما المحامي القدير الأستاذ المصطفى الرميدي فقد احتككت به كثيرًا، واشتغلت معه لسنوات في جريدة الصحوة - قَدْ بَدَسَ اللَّهُ رَوْحَهُ مَا - واقتربت منه في مواقف دعوية أخرى، فوجدت أنه كان رجلاً قَوِيًّا أَمِينًا حَقَّ قَوِيٌّ أَمِينٌ! وكانت معه مجموعة خيرة من الأطر، أشهد أنهم كانت من الصالحين المصلحين.

وأما الأستاذ عبد السلام بلاحي فقد كان من أنشط الإخوة في ربط الصلات بين الإسلاميين بالمغرب، وتقريب وجهات النظر بينهم، من أجل بناء وحدة العمل الإسلامي على الصعيد الوطني. وقد وجدت معه مجموعة من الشباب - في البدايات الأولى لبناء رابطة المستقبل الإسلامي - كانت من أطيب عباد الله خُلُقًا، ومن أخلصهم دينًا!

وأخيرا لا بد - قبل تفصيل مقولاتنا النقدية في شأن "حركة التوحيد والإصلاح" - من الوقوف على تنظيم إسلامي آخر، قد أُقْصِيَ - مع الأسف - من مشروع الوحدة، بعد محاولة توحيدية فاشلة، سبقت مشروع "حركة التوحيد" بقليل. وهو:

- سابعاً: "حركة الاختيار الإسلامي" وهي أيضاً حركة ذات أصول شيعية. كان قادتها من أوائل من انفصل عن الجسم الشيعي الأكبر. فاستمرت على النهج السري زمنياً، ثم انقسمت - بعد فشل تجربة وحدوية سابقة - إلى حركتين مختلفتين. بسبب أنها كانت قبل ذلك تحمل تناقضات فكرية ومنهجية في تصورهما للعمل الإسلامي، واختلافات تكاد تكون عمودية بين بعض أجنحتها القيادية، التي أراجع بين التأثير بالتشيع - فكراً لا عقدياً - لفترة محدودة⁴⁶، والتي تأثر بالأدبيات الماركسية في تدبير العمل التنظيمي، وكذا اعتماد الأسلوب "المطيعي" المبني على منهج المناورة السياسية تجاه الإسلاميين أنفسهم! وقد خُلصَتْ منهم طائفة، تبلورت في مسمى (الحركة من أجل الأمة)، أحسبها على خير إن شاء الله. فقد حاولت تأصيل ذاتها في النهج صوص الشرعية على قدر طاقتها، وحاولت الارتباط أكثر بالمنهج الإسلامي الأصلي. وقد قرأتُ لها إصدارها المنهجي التأصيلي الموسوم بـ "رسالة البصيرة"، الذي يعتبر محاولة جادة في التخلص من الآثار الشيعية السيئة، والمذاهب الشيعية والماركسية، المخالفة للمنهج الإسلامي عام، والمنهج السني المغربي خاصة. وأحسب أن قادتها من أحرص الإسلاميين على العمل الوحدوي، ومن أطيهم معشراً ومن أخلصهم مخبراً. كما أحسب أنهم قد ظلموا في سياق مشروع وحدة فاشلة، سبقت مشروع

⁴⁶ تبين أن بعض شباهم قد تشيع بالفعل!

"حركة التوحيد والإصلاح" بقليل؛ إذ أنه لم يُميَّز بينهم وبين جناحهم الآخر، الذي كان السبب الرئيس في العراقيل. ذلك، وإنما الموقف من وفقه الله.

هذا، وقد كان لكل واحدة من هذه الجمعيات طابع خاص يميزها عن الأخرى. فلما نضجت فكرة الوحدة في أذهان بعض قادتها المخلصين، كان أهم طموح يُرْتَجَى في ذلك - علاوة على تصد التوحيد ذاته - هو التكامل بين مختلف الاجتهادات، وما يترتب على ذلك من غنى دعوي، وعمق استراتيجي؛ بسبب التعددية الاجتهادية داخل الوحدة التنظيمية.

وأشهد - كمعائن للمرحلة ومعايش لها - أن مشروع الوحدة الحركي قد دشنه بالمغرب إراداتٌ خيرةٌ، انطلقت من جمعية الدعوة الإسلامية بفاس ابتداءً، ومن الجمعية الإسلامية بالشمال، ثم جمعية التبين بالرباط، فنشأ الاتحاد الإسلامي أولاً، بعد مرحلة سابقة من اللقاءات والتنسيقات التعارفية، منذ أواسط الثمانينات من القرن الميلادي الماضي⁽⁴⁷⁾. ثم تبلورت - بعد ذلك - حركة الوحدة الإسلامية الأولى

⁴⁷ كانت هناك محاولات توحيدية سابقة، منذ أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، حضرت لها جمعية الدعوة بفاس والجمعية الإسلامية بالشمال، وشارك فيها الأستاذ عبد السلام ياسين بصفته الفردية، إذ لم يكن قد أسس تنظيمه الأول "أسرة الجماعة"، الذي تطور فيما بعد إلى مسمى "جماعة العدل والإحسان". وقد

بالمغرب، في مُسمًى "رابطة المستقبل الإسلامي"، التي ابتدئ تأسيسها سنة: 1988م، وتم الإعلان عنها رسمياً سنة: 1994م، وكانت قد أصدرت جريدتها الأولى: "السبيل"، التي صودرت بعد صدور أعدادها الأولى، ثم جريدتها الثانية الناجحة "الصحوة"، التي كان لها من سعة الانتشار ما لم يكن لجريدة إسلامية قبلها!⁽⁴⁸⁾ ثم دخلت الرابطة في مشروع وحدوي جريء مع حركة الاختيار الإسلامي المذكورة آنفاً، لم تستمر إلا قليلاً حتى أُفشلت - مع الأسف - للأسباب المذكورة قبل. ثم دخلت "الرابطة" بعدها في المشروع الوحدوي التاريخي الكبير، مع حركة "حاتم"، الذي استمر لسنوات يبنى هياكل الوحدة ومؤسساتها، قبل أن تقصمه العاصفة السياسية الملعونة؛ فيؤول إلى مجرد أطلال، تُذكرُ بالطموح العظيم الذي كان! وبيان ذلك هو كما يلي:

كانت الجلسة التاريخية لمجلس الشورى برابطة المستقبل الإسلامي، الذي انعقد بالرباط إحدى ليالي شهر يونيو من سنة: 1996م؛ منعظاً تاريخياً مهماً في تاريخ العمل الإسلامي بالمغرب ترتبت عنه إنجازات

بلغني ممن أثق به، من الذين كانوا وراء فكرة الوحدة الأولى، والتحدضير لاجتماعاتها أن نزعة الأستاذ ياسين الشخصية حالت دون نجاح المشروع؛ فآل الأمر إلى تأسيسه لجماعته المستقلة. والله أعلم.

⁴⁸ كان يدير نشرها باقتدار الأستاذ المجاهد المصطفى الرميد. وقد كان يشتغل معه فيها فريق إعلامي قوي، برئاسة الأستاذ عبد الرزاق المروري، تقبله الله في الشهداء!

وسلبيات. وهناك أخذ قرار المصادقة على إبرام الوحدة بين الرابطة بكل مكوناتها: (جمعية الدعوة، والجمعية الإسلامية، والتبين) من جهة، وبين حركة الإصلاح والتجديد: "حاتم"، من جهة أخرى. ولكن قيادة جمعية الدعوة الإسلامية بفاس رفضت القرار بذلك اللقاء؛ باعتباره أن الوحدة لم تنضج بعد، وباعتبار أن المضمون الإسلامي لـ "حاتم" لم يتخلص بعد من خلفيته "المطيعية"، وأصررت على احترام المرحلة في بناء الوحدة، من تعارفية، فاتحادية، فوحدة. وأن الحوار الوجداني يجب أن يبدأ بقضايا المضامين والتصورات قبل الهياكل والمؤسسات. لكن الرأي الآخر المرحح للبدء بالأشكال قبل الأقوال كان أغلب كثرة؛ فأمضي القرار.

ورجع من هناك قادة فاس معتزلين لها غير مشاركين. ولكن جمهور أتباعها سار مع الوحدة إلى حين. وكان أحد القادة آنئذ يقول على سبيل الأسى والتأسي، متمثلاً بقول موسى عليه السلام، بعد ضلال بني إسرائيل: (قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي!) (المائدة: 25).

ومضت الوحدة بين "حاتم" و"الرابطة"، على هذه الصورة والشروط المذكورة؛ فتأسست (حركة التوحيد والإصلاح) في 25/24 من شهر غشت لسنة 1996م. ثم عاشت على أمل عظيم، وحيوية كبيرة، في ظروف تاريخية - على المستوى السياسي العام - كانت لصالح العمل الإسلامي، على الصعيد العالمي والوطني. حتى إذا غادرت الحركة

الجديدة مرحلتها الانتقالية، وشرعت في تأسيس المصامين، وبدء الورقات التصورية، على المستويات التربوية، والدعوية، والثقافية، والسياسية، والنقابية، بدأ التيار السياسي يحرف الحركة بقوة، وبدأت المشاكل الخلافية تصعد إلى السطح شيئاً فشيئاً. وبدأ اليأس يمدب إلى قلوب بعض القيادات العليا والمتوسطة من هذا الاتجاه أو ذاك. وبدأت "المُطِيعِيَّة" تبرز من حين لآخر في هذا السلوك أو ذاك! وبدأت الأحزاب الداخلية تتشكل، وتتضخم أكثر وأكثر، خاصة في الظروف الانتخابية الداخلية لرئاسة هذه المؤسسة أو تلك. وكان ذلك سبباً في تجميد عدة شخصيات لعضويتهم في الحركة، أو انسحابهم بحمدوء مطلقاً. هذا كمرحلة أولى من مراحل الاضطراب في صفوف الحركة.

أما المرحلة الثانية: فقد كانت بعد الانحراف العملي لصالح "الوصل" في قضية "الفصل والوصل" التاريخية، التي تعلق بإشكال طريقة التعامل مع "حزب العدالة والتنمية"، حيث انتصبت هناك قضية وجود شخصيات قيادية تجمع بين عدة مهام وصفات، ممن هم أعضاء المكتب التنفيذي للحركة، إلى عضوية الأمانة العامة للحزب، إلى قيادة الإطار النقابي أيضاً: (الاتحاد الوطني للشغل بالمغرب) إلى عضوية البرلمان! إلخ. فحصل اتفاق أعلن بمجلس الشورى بضرورة الفصل بين المؤسسات، يتم تنفيذه على مراحل؛ وذلك بالألا يجمع أحد بين مسؤوليتين. فمن كان عضواً في المكتب التنفيذي للحركة لم يجز له أن يكون عضواً في الأمانة العامة للحزب. أو النقابية. ولا أن يكون

منتخبا برلمانيا؛ من أجل الحفاظ على صفاء العمل الدعوي، وقدرة على مخاطبة جميع التيارات، واستيعاب كل الاتجاهات، وألا تهوّل الحركة في منافسة الأحزاب السياسية، بل تكتفي بالتوجيه العام وترك الفعل التنافسي للحزب وحده. ولكن شيئا من ذلك لم يقع فقد عمد رؤوس التيار السياسي لخلط الأوراق، والجمع بين كل المهام؛ لأسباب شتى ليس هذا أوان ذكرها. فصارت الحركة والحزب في الواقع وجهين لعملة واحدة! وصارت الدعوة خادمة للسياسة، والعكس غير صحيح! وفي الجناح السياسي عقاربٌ خضراءٌ وبعضُ شياطين! وتلك أسوأ خطيئة وقعت فيها حركة التوحيد والإصلاح!

إن التضخم السياسي للحركة، والانتفاخ السرطاني لحزب العدالة والتنمية، الذي بآء يآثمه التيار المطيعي، ثم تتابع الهجرات، أو به الأخرى التهجير الجماعي للشباب، من الحركة إلى الحزب، واستقطابه للأفئدة من العاملين في المجال التربوي والتكويني بصورة غير مشروعة في كثير من الأحيان، على طريقة الهجرة السرية حيناً، والارتقاء على أكتاف شباب قوارب الموت، أو على طريقة هجرة الأدمغة؛ طمعا في الرواتب العالية حيناً آخر؛ مما أدى إلى حشده لكل الطاقات الحركية في شبيبة مادية وشيئة! قد أنتج ذلك كله الموت السريع للعمل التربوي، وانحيار كل الوظائف الأساسية لحركة التوحيد والإصلاح، مما قرّره في أدبياته الاجتماعية، أعني الأركان الوظيفية الثلاثة: "الدعوة والتربية والتكوين". فصارت اللجان المختصة بما لا تجد مخاطبة لها في الحركة ولا خارج

الحركة، إذ لم تعد لها القدرة النفسية على مخاطبة العموم بشيء م من ذلك؛ فآلت ملفاتها إلى رفوف الإهمال! فلا دعوة - بعد في الحركة - ولا تربية ولا تكوين!

وفي غياب الغطاء التربوي والخطاب الإيماني، وتم رد ك شير م من الأعضاء على مجالسه؛ فسَدَ دينُ بعض العاملين في الصف الإسلامي! وانتشرت العقارب الخضراء في كل جهة وقطاع! حتى صارت مواعد اجتماع بعض المؤسسات الحركية، مثل مجلس الشورى، أو الجمع العام، أو جموع القطاع الطلابي، أو نحو هذا وذاك؛ مناسبات لإشعال حرب الكلام واحتطاب الآثام! حتى إذا أخذ الغضبُ من بعضهم عقله، وسلبه تمييزه ولُبه؛ انفجر جهراً بالسوء! وما زلت أذكر بعض محالس الشورى التي وُضِعَتْ في الأصل لجمع آراء ذوي العقول والأحلام، كيف كانت تتشكل فرقا وأحلافًا، وتترسُّ ببعض زوايا مقر الحركة لتحصين مدافعها ضد إخوانها! وإني لأذكر بعض تلك الوجوه البئيسة! من "أهل الحل والعقد" يا حسرة! كيف كانت تتخير خنادقها ما بين الكراسي، وترتب أرقام تدخلاتها ومواقفها بعناية؛ قبل م من تكون؟ وبعد من؟! حتى إذا افْتُتِحَت الكلمات وحيث النقاشات والله تتعل الشرر! لم تسمع منها إلا عبارات اللمز، ولم ترَ بينَها إلا إشعارات الغمز! في مناورات من الدجل والحيل؛ من أجل "ترشيد" قرارات العمل الإسلامي وخططه! زعموا، والله المستعان!

وعندما تحركت عجلة الاستحقاقات السياسية بالمغرب، غرق حزب العدالة والتنمية فيها إلى أذنيه! وغرقت معه كل الطاقات العاملة في الحركة، التي لم يبق من هياكلها في الوجود إلا الأسماء! فكانت هذه العجلة التي تمضي بالحركة في هذا الاتجاه ما له سبب الرئيس في انسحاب كثير من الطاقات الدعوية وانزوائها، أو اختيارها لبدائل أخرى بهذه الصورة أو تلك، كُلٌّ على حسب اجتهاده. وقد حصل ذلك عبر مرحلتين:

- مرحلة الانقلاب الحتمي: وهي المرحلة الممهدة لتفرد الحزب بكل شيء. حيث صارت الوحدة المذكورة تتطور في اتجاه ترسيخ الاختيارات "الحتمية" بالدرجة الأولى⁽⁴⁹⁾. وحصل هناك إشكال كبير

⁴⁹ لا بد هنا أن أقدم كامل اعتذاري لإخواننا من حركة حاتم (سابقا). فقد وجدنا في الحركة مجاهدين مخلصين، وقياديين صالحين - كما بيناه في المتن - ليس في المجال الدعوي فحسب؛ بل حتى في المجال السياسي. وإذا خيأتهم اجتهاداتهم مهما حصل من خلاف. ويحضرني هنا على رأس القيادات السياسية الصديقة أخونا وصديقنا الداعية الحجة الأستاذ أبو زيد المقرئ الإدريسي حفظه الله.

وغير أبي زيد من القياديين الحاثمين الصادقين كثير، في الحزب وفي الحركة، لا يتسع المجال لذكرهم. لكنهم وإن كانوا أصلح أمانة فهم أضعف قوة! ولذلك فإن المطيعة - مع الأسف - كانت لها الغلبة؛ ففرضت طابعها على العمل كله! ثم حرّفت الاتجاه بأساليبها غير المشروعة! وقد علّم في قواعد علم أصول الفقه أن

على مستوى المنهج، وهو أن خطوات التوحيد تمت كما ذكرنا بين الأشكال قبل أن تتم بين الأقوال، أعني أنما تمت على مستوى المؤسسات الإدارية والتنظيمية قبل أن تتم على مستوى الأفكار والمواقف والتصورات. وهذا أدى في النهاية إلى توحيد الأشباح دون توحيد الأرواح! وما زلتُ أذكر أن الجموع العامة والمجالس المشورية والتنفيذية كان يغلب عليها عند التصويت الانقسام إلى قسمين بارزين: أصوات أبناء "الرابطة" في جهة، وأصوات أبناء "حاتم" في جهة أخرى! نعم؛ حصل بعض الانسجام فيما بعد؛ ولكن بعد انسحاب قيادات رابطة مؤثرة، وذوبان أخرى في "المطيعية" - مع الأسف - والتطبيع باستصنامها!

و"حاتم" جماعة إسلامية خيرة. هذا لا مرأى فيه. وفيها من الصالحين من نظن - إن شاء الله - أنه لو أقسم على الله لأبره! ولكن المشكلة أنما كانت ما تزال تعاني من شغب شرذمة ذات نزعة "مطيعية"، تناسلت حتى صنعت جيوبا قوية وأحلافًا! تمتد من المركز إلى الشبه

الحكم على الظواهر والأشياء، مما امتزج فيه الخير والشر، إنما هو بمقتضى ما غلب منهما. وقضيتنا ليست من قبيل ما يدرس بمنطق الخير والشر، كالا وحاشا! وإنما نستفيد الميزان الفقهي لمعالجتها، على أننا إنما ندرسها بمنطق الخطأ والصواب، وأما النيات فمهما بدا لنا فيها من ظواهر مقرفة، فإننا لا نعين أحدا من أصحابها تعيينا، ونكل أمرهم إلى الله، وهو وحده المستعان.

جهات الوطن! ونصبت لها أصداما في كل منطقة وقطاع! ولكل جماعة سفيهاؤهما نعم؛ ولكن "المطيعية" كانت أسوأ ما رأيت بين الإسلاميين! وهي ظاهرة ما تزال مستمرة - مع الأسف - بين عدد من التنظيمات الإسلامية بالمغرب، كالعدل والإحسان، والاختيار الإسلامي (سابقا)، وحركة التوحيد والإصلاح، وغيرها، بتفاوت بين هذه الجماعة وتلك.

وعلى الرغم من أن غالبية أطر "حاتم" من الصالحين المصلحين، وعقلاء المثقفين؛ فقد كانت الطاقات المطيعية هي التي توجه الجماعة - بمناوراتها وأحلافها - إلى ما تريد في النهاية! تدفعها حمى الشخصية الرهيبة! فالمطيعيون - سواء منهم القدامى والجدد - مرضى بـ ضخمة "الأنا"، إلى درجة الشذوذ! ليس على المستوى الوطني فحسب؛ بل على المستوى الجهوي أيضا! قد أشرُّوا حُبَّ الرعامة والرياسة حتى صار ذلك فيهم مرضا مزمنًا! تعابيرهم تنطق بعشقها علنا؛ لشدة ما تنقد شهوتها في نفوسهم! ولا هم بقادرين على مقاومة لها ولو بالكتمان! ولا أراهم قادرين على التخلص من أدوائها؛ إلا أن يُحدَّثوا على مستشفى الأمراض النفسية!

وكثيرا ما يعجب بعض الإخوان متسائلين: لماذا لم تستطع تيارات الأغلبية مواجهة الأصنام المطيعية داخل الحركة؟ وهذا السؤال مشروع لو كان الأمر يتعلق بتنظيم سياسي محض، أو بمنظمة لادينية. ولكن الأمر هنا دين! إذ مواجهة مثل هذه الأحلاف الشاذة تحتاج إلى قدر لا

بأس به من الشذوذ لمغالبتها! فلا بد من اعتماد قاموس من المصطلحات والإهانات على وزانها، وركوب أساليب الخداع والمناورات على أشكالها! فأين هي (الإسلامية) إذن؟ وقديما كما كان أحد المرءانيين يصطحب معه سفيهاً، أتى رجل وارتحل! فعجب الناس من ذلك، فقبل له: "يا شيخ لم تصطحب هذا السفيه؟" فقال: "ليرد على السفهاء!" وصارت هذه الحكمة مثلاً سائراً. لأن السفيه لا يغلبه - في الظاهر - إلا سفيه مثله، أو أشد سفهاً! ونحن لسنا بسفهاء - نعوذ بالله! - ولا نستطيع أن نصطحب السفهاء! بل من خدعنا بالله الخدعنا له، ولكن إلى حين، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين! ولذلك فضّلنا الانسحاب من مواطن السّفه بسلام. وأمر الدعوة أوسع من أن تتدافع فيه مع هؤلاء. والله المستعان.

وفي بداية الوحدة وقع حادثٌ قَدْرِيٌّ محزن، ترك بصماته على الحركة كلها؛ لحكمة يعلمها الله، وهو موت الأستاذ المجاهد عبد الرزاق المروري هو وزوجه، في حادثة سير أليمة! يوم سابع نونبر من سنة: 1996م. رحهما الله وتقبلهما في الشهداء! كان لموت هذا الرجل في المرحلة الأولى من تأسيس الوحدة - بعد نحو شهرين من تاريخ التأسيس - أبلغ الأثر في اضطراب التعادل بين التنظيميين، وفق مدان التوازن في قانون التدافع بين المواقف والتصورات. وقد كان الأسس متوازنة المروري - رحمه الله - أمة وحده! فقد كان قائداً ناجحاً لحركة التبيين آنئذ، ومن القيادات النشيطة لرابطة المستقبل الإسلامي. كما كان طاقة

فكرية فياضة، مثقفا واسع الاطلاع، ذا قدرة إعلامية ذكية، شه حجاجا في إعلاء الحق، قويا في مواجهة الباطل! وكان موته خسارة للعلماء الإسلاميين عامة وخسارة لرابطة المستقبل الإسلامي خاصة، ومساهمة في فقدان جزء مهم من قوة الاتجاه التربوي والتكويني لصالح الاتجاه السياسي الصرف في حركة التوحيد والإصلاح. والله الأمر من قبل ومن بعد!

وبعد موته بسنوات قليلة بدأ صاحبه المخلص الأستاذ المجاهد أحمد المشتالي، ورفيق دربه في قيادة حركة التبيين، ينسحب - على المستوى النفسي - شيئا فشيئا، من قيادة حركة التوحيد، بعد مدافعات يائسة مع الاتجاه المطيعي؛ إلى أن اعتزل العمل القيادي والتوجيهي في الحركة مطلقا! وظل يحضر لقاءاتها بوضعية أشبه ما تكون بوضعية "المراقب"! وإنها لخسارة جسيمة أن يفقد العمل الإسلامي بالمغرب الحضور الفعلي لرجل قوي، يملك من الصفاء الروحي، والذكاء العقلي، مثل ما يملك الأستاذ أحمد المشتالي! ثم انسحبت من الحركة طاقات "تبيينية" قيادية هامة، على وزان المشتالي أو تكاد! (50)

وبعد نحو سنتين من انطلاق الوحدة تواترت انسحابات شتى من أبناء الرابطة، خاصة من جمعية الدعوة بفاس، وأغلبهم من القيادات

50 أعرضنا عن ذكر بعض الأسماء؛ لحساسية مواقعهم الإدارية في وظائفهم الرسمية الحالية، أو لأننا نعلم أنهم لا يفضلون ذكر أسمائهم في المرحلة الراهنة.

المتوسطة؛ لأن القيادات العليا لم تمض في مشروع الوحدة الأخيرة أصلاً، وإن كانت قد أسهمت بقوة في التنظير له ابتداءً. وقد كان انسحاب الأستاذ محمد أمناس من عضوية المكتب التنفيذي الذي سنة 1998م، بداية فعلية لعودة كثير من أبناء المدرسة الفاسية إلى الالتفاف من جديد حول برامجهم التربوية القرآنية⁵¹.

وكانت خاتمة المرحلة الأولى من الانسحابات الموازية للتطور السريع لعملية طبع التوجه العملي على الميزان "الحائمي" في الغالب؛ أن آلت "حركة التوحيد والإصلاح" إلى صورة "حركة الإصلاح والتجديد": "حاتم"، بصورة استردادية، لكن في طبعة جديدة، لك أن تقول: "إنها مزيدة ومنقحة!" لأن التوحيد الحقيقي إنما هو توحيد الأفكار والتصورات، قبل أن يكون توحيد الأسماء والشخصيات.

وفقدت جريدة "التجديد" جذبتها بعد قرار إصدارها اليومي؛ فآلت من حيث المنهج الإعلامي إلى شبه ناطقة باسم "الحزب العدالة والتنمية" ولم لا؟ فقد صارت الحركة والحزب وجهين لعملة واحدة!

⁵¹ لم يُقدَّر بعض الإخوان - مع الأسف - في حركة التوحيد والإصلاح وطنياً، ولا جهوياً - على صعيد جهة مكناس خاصة - الحيوية الإدارية، والقوة التنفيذية، التي كان يتمتع بها الأستاذ محمد أمناس. كما أن بعضهم لم يطلق التعامل مع حديثه الصحراوي الصارمة؛ فكان ذلك سبباً في مضايقته بأساليب شتى، زاده حدة ما لاحظته هو في الحركة من خروقات لا قبل له بها؛ مما أدى إلى نفوره وانسحابه كلية، بصورة مفاجئة جارحة، من حركة الوحدة في وقت مبكر جداً.

فصارت الجريدة - بعد ذلك - منبرا خاصا لتلميع بعض المطيعين من ذوي الطموحات الشخصية مع الأسف! ودخلت إدارتها بسبب ذلك كله في دوامة من التخططات، بإسناد الأمور إلى غير أهلها من جهة؛ والطرْد المنهجي لثلة متميزة من الصحفيين الشباب، لا لذنْب؛ وإنما لأنهم لم يستجيبوا للترويض المطيعي، ولم يخضعوا للتطويع الشخصي؛ مما أدى إلى تراجع مبيعاتها وكساد نسخها، ثم بوارها في سوق الإعلام! والله المستعان.

لقد كانت حركة التوحيد والإصلاح في بداية عهدها عبارة عن مدارس شتى، تربوية، ودعوية، وفكرية، وعلمية، وسياسية... إلخ. ولكن قاطرة الحزب السياسي تفردت بالجر فتناثر حولها كل شيء! (52)

52 زاد الطين بلة تركية الحزب لبعض الانتهازيين المحسوبين على الحركة، ثم تركيته لبعض الوصوليين ممن لا علاقة لهم بها أصلاً، لا انتماء ولا تربية! أما نالته الأثافي لإحراق ما بقي له من المصادقية فهي تصويته المخزّي؛ لتمرير بعض القوانين الظالمة التي صارت من أول يومها سوطاً رهيباً في يد الاستهصاليين، يجلدون به ظهور الدعاة هنا وهناك، ويغلّقون به مدارس القرآن، ويحاصرون المساجد، ويرهبون به كل من نادى بحقوق الله! ولو كان الفريق البرلماني فريقاً مبدئياً حقاً لامتنع عن التصويت على مثل تلك المخزريات! نعم! ولو أدى ذلك إلى الاستقالة الجماعية أو حتى إلى حل الحزب كله! ولن تقع السماء على الأرض بعد ذلك! كلا! ولن تسقط للمساجد صوامع ولا قباب! ففضية الدين بالمغرب أرسخ من أن ترتبط بوجود حزب أو أوام جماعة! بل هي محفوظة بالله أولاً، ثم

- أما المرحلة الثانية من التطورات والانسحابات (ما بعد سنة 2000م)؛ فقد تميزت بموت تدريجي لحركة التوحيد والإصلاح في صورتها "الحاتمية" الأخيرة، ومسخها إلى صيغة "حزب العدالة والتنمية"؛ نقول ذلك ونحن نعلم بقاء أطلالها قائمة، في شكل هيئات ومقرات خاوية من مضمونها الأصلي، دعوة وتربية وتكويناً، وأفراد هنا وهناك، لا فاعلية لهم ولا حياة؛ إلا إذا دُعوا إلى ملتقى سياسي محض، أو دخلوا في حمى الانتخابات والدعايات؛ وفي هذه المرحلة المتأخرة كان انسحاب عدة أفراد، ودَحْرَجَة آخرين؛ فمن المنسحبين الأساتذة الفقيه محمد الروكي، والأستاذ أحمد عبد العبدادي، والأساتذة تادفر بن الأنصاري، ومن المُدَحْرَجِينَ - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - الأستاذ الدكتور أحمد الريسوني الرئيس الأول لحركة التوحيد والإصلاح الذي استقال من رئاستها سنة 2003م، والأستاذ المجاهد المصطفى الرميدي الرئيس الأول للفريق البرلماني الذي أزيح من رئاسته أواخر سنة 2003م.

بتضامن الأمة المغربية الأصيلة ملكاً وشعباً، ولو وضعنا كل إنجازات الحزب في كفة - إن كانت له إنجازات - ثم وضعنا خطيئة التصويت على حصار الدعوة إلى الله؛ لكفى بسواد هذه أن يغمر كل بياض؛ كذلك الأمر كان، والله المستعان!

وأما المفكر الإسلامي الأستاذ أحمد الريسوني فأمره عجيب! ما رأيت أقوى منه ولا أصبر على ترويض السباع! ولكنها - مع الأسف - أكلته في النهاية!⁵³

⁵³ لم تكن قضية تصريحات الدكتور الريسوني الصحفية هي السبب الحقيقي وراء فقدانه لموقعه القيادي في الحركة، ولكنها فقط كانت هي النقطة التي أفاضت الكأس! وإلا فقد كان من الخطأ الجسيم أن تُقبل استقالته في تلك الظروف السياسية الدقيقة! وأنا أعلم أن بعض المطيعين قد استقبلوها بحفاوة وتحليل؛ بل لقد كانوا ينتظرونها منذ زمان! فقد شهدت شخصيا محاولات دحرجته عن مواقفه القيادية قبل ذلك بسنوات! بدءا بمحاولة إزاحته من رئاسة تحرير التجديد - وهو رئيس للحركة آنئذ - إلى المآل الذي صار إليه بعد، وهو في ذلك كله على وعي تام وصبر عجيب؛ بما نعلم من عقليته المقاصدية، ونفسيته اللوامية الشديدة! حتى تم إخراج الصورة في النهاية - مع الأسف - على أن أحمد الريسوني هو رأس الجناح المتطرف في الحركة! وأنا على يقين من أنه من أكثر الناس اعتدالا وتوسطا، عن علم واجتهاد لا عن مبالاة وتقليد! ومعلوم أن المكتب التنفيذي قد احتفظ باسمه؛ ولكن معلوم أيضا أنه لم يحتفظ بشخصه! فقد مدت الحركة بعد ذلك توازنها من بعد ما فقدت رجل التوازنات!

لقد اختار الدكتور الريسوني أن تحرق رصاصة الاستئصاليين صدره على أن تحرق صدر الحركة؛ ارتكابا لأخف الضررين - في نظره - اتقاء لأشدهما! لكن الواقع أن الرصاصة قد حرقت صدرهما معا! وما كان لها أن تحرق صدره ولا صدرها لو عولج الأمر بغير ذلك الأسلوب المتسرع! ثم خرج الرجل إلى منفاه الاختياري بهدوء، وحال لسانه ينشد كما أنشد شاعر العرب من قبل:

وهنا - في نظري - انتهت اللعبة! على حد تعبير الدكتور محمد الدوري، بُعِدَ سقوط بغداد! وهو أنثى مثل العراق في الأمم المتحدة مدة (سابقا).

ولم يبق في تقديري إلا من هضمته "المطبعة"، أو من لا يزال يحلم بشيء من الوهم في القدرة على تصحيح المسار! وأذكر أن الأساتذة الذكي الدكتور رضا بن خلدون قد كتب - قبيل الوحدة - مقالة بعنوان "الدرس الحاتمي"؛ تصفيقا لتغييرات شرعية في قيادة حركة الإصلاح والتجديد "حاتم" يومئذ، وأحسب أن المقال كان قد جاء قبل إبانة بكثير، حيث استعجل الدكتور التقويم، ولم ينتظر حتى نهاية الدرس! وإنما "الأمور بخواتمها" كما تقول القاعدة الشرعية! لقد صارت قصة الوحدة - ذات البناء التراجيدي الحزين - إلى ما يلي:

كانت البداية تأسيسا طموحا لوحدة إسلامية وطنية، في أعظم قسم من أقسام العمل الإسلامي بالمغرب، وتأليفا لأوعي نخبة مثقفة من رجاله! ولكن بعد نحو سنتين من العمل، بدأ يظهر أن الوحدة صارت تقول حقيقتها إلى مجرد "التحاق" لرابطة المستقبل الإسلامي بحركة الإصلاح والتجديد! للأسباب المذكورة آنفا. ثم بعد الانتخابات

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسٌ *** وَأَرْقَطُ زَهْلُولٌ وَعَرَفَاءُ جِبَالُ
هُمْ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السَّرِّ ذَائِعٌ *** لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُخَذَّلُ!

الوطنية للبرلمان المغربي، لسنة: 2002م، صارت "حركة التوحيد والإصلاح" في صورتها "الحامية" تقول إلى مجرد "التحالف" بحزب العدالة والتنمية! وتفرغ لطاقاته في مناهضة المظلمة! وانهت القصة! (54)

والنتيجة المساوية المترتبة عن كل ما سبق أن "حركة التوحيد والإصلاح" - إضافة إلى فشلها الوحدوي - قد فشلت أيضا في

54 وإني لأذكر الآن مقولة طلما رددتها؛ إسهاما في تقويم السير العام للحركة، وأنا يومئذ بمكتبها التنفيذي، أشاهد عملية التحريف الممنهج لقطار الحركة عن سبيلها: (إن حركة التوحيد والإصلاح تنحرف عن حركة التوحيد والإصلاح!) وكان لذلك الكلام لكثرة ما كررته صدى واعترافا من لدن بعض من أسهموا في تغليب السياسي على الدعوي، فاقترح مقترحا عجيبا وهو أن نتخذ مكتبين تنفيذيين اثنين! أحدهما لتدبير شؤون الحركة "دعوة وتربية وتكوين"، والآخر لتدبير الشأن السياسي! فقلت: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبٍ مِّن فِي جَوْفِهِ!) (الأحزاب: 4)

والذي لا شك فيه أن الورقات المنهجية والتصورية التي أنجزتها الحركة التوحيد والإصلاح لا غبار عليها ولا إشكال على الإجمال. وإنما المشكلة أنها بقيت مع الأسف بلا تفعيل حقيقي، وتعاملت معها كإداة الحركة وأطرها بأسلوب "الحمالات"، لا بمنهج العمل المدرسي الثابت، الذي هو وحده منهج الدعوة والتربية والتكوين والبناء. وفي ظل ذلك صار العمل السياسي للأفراد هو الأصل، وصار العمل الدعوي هو التابع!

تقديم منتوجها (الإسلامي) الذي تزعم أنها تتميز به وتنفرد! وبيان ذلك كما يلي:

- على مستوى الهدف: دجّت الحركة في ميثاقها منذ مراحله بنائها الأولى أن هدفها الأول هو "إقامة الدين" على كل المستويات، من الفرد إلى الأسرة، إلى المجتمع، إلى الدولة، إلى الأمة!⁵⁵. وأفق حول بكل أسف إنه - بالنسبة لواقعها الداخلي - هدف وهمي! لأنه بكل صراحة هدف مبني على مجرد التمني! إذ الحقيقة المرة أن العقلية المطيعية صيرت الحركة - في كثير من منتسبيها - بلا دين!⁵⁶ كما بيناه في غير ما سياق بهذه الورقات، على المستوى المركزي، والجهوي، وعلى المستوى القطاعي الحزبي، والنقابي، والطلابي جميعاً! والقاعدة المنطقية أن فاقد الشيء لا يعطيه! لقد فشلت الحركة فشلاً ذريعاً - كما تبين قبل - في تصنيع منتوج "الأمانة"! وذلك هو جوهر الدين، الذي تزعم أنها وجدت لإقامته فيما ذكر من مجالات كبرى. والحديث الصحيح

⁵⁵ الميثاق: 52-57. إصدار حركة التوحيد والإصلاح.

⁵⁶ المقصود: ضعف الدين ولبنه، كما بيناه من قبل بهذه الورقات. وعلى ذلك يجب فهم الحديث المستشهد به في السياق الآتي أعلاه: (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ!) بمعنى نفي كمال الإيمان، لا أصل الإيمان، كما شرحه غير واحد من العلماء.

صريح في أنه (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ! وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ!)⁵⁷ وهو معنى كُلِّيٍّ من كليات الدين القطعية، إذ النصوص الشرعية فيه أكثر من أن تحصى.

- على مستوى الوسائل الوظيفية: "الدعوة والتربية والتكوين". جعلت الحركة في ورقاتها وأدبياتها الوظائف الثلاث المذكورة هي تخصصها العملي، الذي تتوسل به إلى "إقامة الدين"، الذي هو هدفها الأول من العمل الإسلامي. ولكن الحقيقة المؤسفة - كما بينا قبل - أنه لا وجود لكل ذلك على أرض الواقع؛ إلا أشكالاً لا تسمن ولا تغني من جوع! وقد بينا أسبابه؛ فلا حاجة للإعادة. وحجتنا القاطعة لدينا عندك - قارئنا الكريم - هي أن تزور بنفسك مقرات الحركة، وتحالط قطاعاتها المختلفة، ثم تتابع طبيعة الأنشطة التي أغرقت أغلب أطرها هنا وهناك، وما هم فيه منهمكون أغلب الأحوال والأوقات؛ لتشاهد الحقيقة مُعَايَنَةً؛ فتري فرقاً ما بين المفعول والمَقُول!

- على مستوى الشورى: تزعم "حركة التوحيد والإصلاح" أنها نموذج متميز لتطبيق مفهوم "الشورى" الإسلامي على المستوى الداخلي للحركة. بل هناك من قادتها من يرى أنها أمثل نموذج على مستوى العالم الإسلامي كله! سواء في بناء الهياكل، أو في اتخاذ المواقف

⁵⁷ رواه أحمد وابن حبان عن أنس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

والقرارات. وأنا أزعم - كعضو سابق في المكتب التنفيذي، ومجلس الشورى، والجمع العام، وبعض اللجان الوظيفية، وكمشرف سابق أيضا على العمل الطلابي - أن ذلك كله مجرد وهم! بل الحقيقة المرة أن "الحركة" من أقدر التنظيمات الإسلامية على تطبيق "الديمقراطية" بمفهومها السياسي! أعني: "الديمقراطية" بما هي قدرة سحرية خارقة على إيهام الجموع العامة، والمؤسسات "الشورية"، أن أعضاءها قد شاركوا، وأنهم قد عبروا، وأنهم قد رأوا، وما هم - في الواقع - قد رأوا شيئا! أليس هذا بالعجب العجيب فعلا؟! فلْيَسْمُوْهَا "شورى" أو لْيَسْمُوْهَا "ديمقراطية"! ولكنها في النهاية "شيء" عجيب! صورية وهمية، يطبخونها طبخا، ويتقنونها صنعا، ويخرجونها على أبهى ما يكون الإخراج، ثم يعرضونها على أجل ما يلزم الماكياج! حتى إن المشارك فيها لا يكاد يدرك أحقيقة هي أم خيال! وما رأيت في حياتي أشبه من شورى الإخوة - أو ديمقراطيتهم - بلعبة الخيط القمارية، يَعْتَمِدُهَا اللَّاعِبُ عُقْدًا شَتَّى، ثم يطرحها على الأرض، بعضها فوق بعض، حتى يظن الرائي ظنا يشبه اليقين، أنها قد انعقدت على حلق رابحة فعلا، فإذا وضعت إصبعك داخلها سَحَبَ اللَّاعِبُ الخيطَ، وترك إصبعك على فراغ خاسر، تحط الأسى في مهب الريح!

إن هذا الشيء المسمى بـ (الشورى) داخل الحركة إنما هو ضرب من "الميكافيلية" التيارية، أعني أنها منهج قائم أساسا على حفظ القيادة لصالح تيار معين، وجناح معين، بأي ثمن، وبأي وسيلة كانت! ولا حـ

بِالْخُدَعِ الدِّيمُوقْرَاطِيَّةِ وَالْحِيلِ الْمَطْيَعِيَّةِ! سواء في ذلك جوعها العامَّة،
ومجالسها "الشورية" ومكتبها التنفيذي، وقطاعها الطلابي! ذلك ما
عَيْنَاهُ وَشَهِدْنَاهُ، والله المستعان!

لقد صارت "حركة التوحيد والإصلاح" - في النهاية - كـ (ب) ما
أيها الناس! لا اجتهاد لها في الدين ولا في الدعوة، ولا فضل لها في
التربية ولا في التكوين. بل باتت لا يميزها عن سائر المجتمع سوى أن
ناسها في هيكل تنظيمي، يجمع الصالح والطالح، ككل تنظيمات الناس!
صلاحها على قدر صلاح الناس، وفسادها على قدر فساد الناس،
وفهمها للدين على قدر فهم الناس! فلم يعد لها أي شيء ليس لدى
الناس؛ حتى تعطيه للناس! بل كل ما عندها عندهم، وكل ما ليس
عندهم ليس عندها! فلست أدري - بعد ذلك - ماذا بقي لها اليوم من
معنى "التوحيد"؟ وماذا يجري عليها الآن من مفهوم "الإصلاح"؟ هل
الشكل أم المضمون؟ أم الأطلال والشجون؟ وهل الهياكل والقباب؟ أم
المراتب والألقاب؟ ألا وإن ذلك كله لأشبه ما يكون بأطلال (قرية)
أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقد حصر
مُشِيداً! (الحج: 45).

هذا، وإن كنت آسى بعد ذلك على فوات شيء؛ فإني آسى على
ضمور العمل الإسلامي بالمغرب؛ بضمور جناحين اثنين من أجنحة
العديدة، وهما: جناح الشمال، وجناح الجنوب! صدح أحدهما أن جميع

أجنحة العمل الوطنية كانت لها بركتها وكانت لها تخصصاتها. ولكن الجناحين المذكورين تميزا بما لم يوجد في غيرهما إلا قليلا.

أما جناح الشمال الذي كانت تقوده الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير، فقد كان يسهم في صناعة بيئة روحانية عامة، وطاقات تربوية جادة، وأجواء ثقافية إيمانية متميزة؛ بما جعل المدينة تكاد تصبح عاصمة روحية للشمال المغربي كله! حتى إن بعضهم كان يسمي الجمعية بـ "جمعية الزواج"؛ لكثرة ما كان يُقبلُ الشباب من جهات أخرى على اختيار زوجاتهم من مدينة القصر ونواحيها. وإنما كان ذلك بسبب الصلاح العام، والعفة الشاملة، التي كانت تطبع المنطقة بأسرها⁵⁸؛ وذلك أن غالبية السكان بهذه المناطق هي معادن طيبة طاهرة في أصلها، إذ معظم أعراقها تنتمي إلى مَدَائِرِ الجبال (اجبالة)، بالشمال المغربي. وهم أهل قرآن وعلم، وتدين وصلاح، وعفة وشجاعة، وسابقة في المقاومة والجهاد. فكانت الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير تستفيد من هذا الرصيد المعدني والتاريخي؛ فَتُخَرِّجُ من الناس خيارهم. حتى كانت المدينة تنعم بأمن اجتماعي نادر، بسبب قلة الجريمة والفساد؛ بما غلب على الناس من خير وصلاح. ولكن ما أن ابتلى الله الجمعية بآفة العمل الحزبي حتى تسلطت عليها ريح عادي فأتت على منجزات العمل

⁵⁸ وقد ساعد على ذلك النشاط الدعوي العام، الذي كانت تمارسه جماعة

التبليغ، كما سبقت الإشارة إليه آنفا.

الدعوي كله، خاصه وعامه! وانطلقت السياسية (تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا! فَاصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ) (الأحقاف: 25) وذهب الطابع الروحي للمدينة أدراج الرياح!

وأما جناح الجنوب، فقد كانت منطقة الرشيدية / تافيلالت، بامتداداتها الجبلية والواحاتية؛ أعظم "مَحْمِيَّةٍ بَشَرِيَّةٍ"، وأن مدرع مدن إنساني رفيع، على الصعيد الوطني كله! "مَحْمِيَّة" كمحميات الأسود والغزلان! أقول ذلك ليس تعصبا لها - وأنا ابن نخلها ورمالها - ولكن اعتماداً على شهادات متواترة مستفيضة، صدرت عن كثير من أهل العلم والخبرة، ممن زاروا المنطقة، أو احتكوا برجالها في العمل الإسلامي، أو العمل التعليمي، أو الإداري العام، هنا أو هناك. منطقة غارقة في الفقر والأشجان والأحزان، نعم؛ ومع ذلك ما تزال تصر على الحفاظ على مؤهلاتها الفطرية للخير! بما لا تجده عند غيرها إلا آحاداً. يتخرج الشباب من أصلاحيها مفتورين على خصلتين قلما تجتمعان في هذا الزمان: القوة والأمانة! وهما كمال شخصية الإنسان، على ما ذكره الله - جَلَّ عِلَالَهُ - في القرآن، على لسان ابنة الرجل الصالح، في حق موسى عليه السلام: (إِنَّ خَيْرَ مِمَّنْ سَاءَ مَا جَرَّتْ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (القصص: 26). فإذا خضعت لتكوين تربوي أو تعليمي جاداً،

تُخَرِّجَ من أصلاحيها المعدن النفيس والعبقريَّة النادرة!

وكان أولى بهذه المنطقة أن تبقى "مَحْمِيَّةً" بحق، تشتغل بما به رَزَتْ فيه وأبدعت: "التربية والتكوين"، بعيداً عن أدخنة السياسة الحزبية

وظلماتها. فقد بقيت على عهد هذا زمناً، تنتج الرجل مالاً وصدراً الأبطال؛ حتى كادت أن تغطي التراب الوطني كله بالطاقات القوية والأطر الجادة! فنفع الله بما لم ينفع غيرها.

ولكن!.. ويا لحسرتاه على "ولكن"! وصلت الأمطار الحامضية عبر الحزب السياسي إلى بلاد النخيل أيضاً! فحملت عليها شهعاً وادي زيز وغريس بما لا قبل لها به! وارتمى الشباب في مجاري العمل السياسي العفن، فانتقضت الطهارة، وتنحس العمل! وتورطت الطاقات في الخلافات القبليّة وزادت تأجيجاً واشتعالاً، وقد كانوا إلى عهد قريب هم أهل الصلاح والإصلاح، إليهم المفزع عند أي نزاع. فصاروا طرفاً في كل شيء! وبدل أن يكونوا مرجعاً لحل الإشكال صاروا جزءاً من الإشكال! في منطقة لا تزال فيها الانتماءات القبليّة والعرقية لها وزنها وحسبها! وما تزال القيادة محترمة للشيوخ وأهل الجاه الاجتماعى والقبلي والمادي. وكان أولى أن يحسب كل ذلك، وألا تدخل الحركة الإسلامية في شيء منه طرفاً البتة! ولكنها أخطأت خطأ جسيماً؛ إذ رشحت من أفرادها الصغار من جاء ينافس الشيوخ الكبار! وكان من الزلة التي أهلكت الحرث والنسل! وأدت الدعوة الإسلامية بالمنطقة الثمن غالباً! فقد حوَصِرَ أبناء الحركة دعويًا واجتماعيًا وسياسيًا، وصار كل قول يصدر من دعايتها متهمًا حتى تثبت براءته!

تسيّس العمل الإسلامي بالإقليم المحافظ، فبدأ دين "الدعاة" هناك يلين أيضاً - على اصطلاح المحدثين - وبدأ الانحراف السلوكي

والتصوري ينخر القلوب والأجسام! رجالاً ونساءً؛ بما لم يخطر في ط بال أن يقع مثله بين أولئك القوم، واقتحمته الحمية بالجرثوم السياسي الدخيل، فبدأ الفساد يدب إلى كل شيء! وربما كان لدخول غير أبناء المنطقة إليها بهذه الفهوم بعض نصيب! فماذا بقي لهم أن يقدموا للناس في بيئة لها حساسية ضد الاستغلال السياسي؛ بطبيعة لها القبلية، وتعددها العرقي أشد من غيرها؟

لقد خسر العمل الإسلامي في الجنوب السجل السياسي ما لم يخسره في أي منطقة أخرى، لقد خسر الإنسان! والإنسان هو أغلى ما ينتجه الإقليم على الإطلاق! فما وجدت لضياع العمل التربوي هناك مثلاً أدق مما أورد الله تعالى في حق مملكة سبأ! (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ: جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ! بَدَأَ دَعًا طَيِّبَةً وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا؛ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ! وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ لِيٍّ حَمٍ وَأَذَى لِلنَّاسِ وَنَزَّلْنَا سَيِّدًا بِرَحْمَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكَ آيَاتِنَا إِنَّكَ كَادِحٌ عَلَىٰ رَبِّكَ بِإِلَافٍ كَافٍ). (سبأ: 15-16). كذلك كان، والله المستعان!

فعسى أن يمن الله بعيث طيب ينبت جيلاً جديداً من المصلحين، فلا يأس من رحمة الله، وإنما الدين أمر الله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُمْ عُتَاةٌ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لِّيُؤْثِرُوا بِهَا الْكُفْرَ). (الأنعام: 89). (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم!) (محمد: 38).

تلك إذن خمسة أخطاء منهجية تتعلق بالحركة الإسلامية الإسلامية في صورتها التنظيمية الحديثة. وأما الخطأ المنهجي السادس فقد جعلناه بابا مستقلا لخصوصيته المنهجية والمرجعية. وهو استصنام المذهبية الحنبلية في التيار السلفي. وبيان ذلك هو كما يلي:

الباب الثاني :

استصنام "المذهبية الحنبلية" في التيار السلفي

وهو الخطأ المنهجي السادس للعمل الإسلامي بالمغرب، وقد جعلنا
قضاياها في ثلاثة فصول، هي كالتالي:

الفصل الأول: تمهيد تاريخي

التيار السلفي بالمغرب كان على خير، ونطق بخير، واشتغل بخير. وما كان أحدًا أولى منه بإصلاح البلاد والعباد لو استمر على النهج القويم. ولكنه هو أيضا أنتج - في مرحلة انحرافه - عقارب أشد خطرة من عقارب الحركة الإسلامية، وأشدّ لُسْعاً! فشدة خطرتة؛ هي بما كان أشبه من غيره بالعلم وأهله! وشدة لسعه؛ هي بما ألحق بالإسلام والمسلمين من الأذى على علم! وإليك البيان:

كانت "الدعوة السلفية" هي أول ما اشتغل بالمغرب من حركات الإصلاح الديني، وذلك بالعمل على إخراج أجيال الصحوة الإسلامية المعاصرة. فقد انطلقت نداءاتها التحريرية منذ العهد الاستعماري البائد، حيث ظهرت دعوتها مع علماء مغاربة كبار، من أمثال الشيخ أبي شبيب الدكالي، وشيخ الإسلام ابن العربي العلوي، رحمهما الله، ومن تتلمذ على أيديهما. ثم تطورت مع مجيء العلامة المجدد الدكتور تقي الدين الهلالي، والشيخ محمد الزمزمي آل ابن الصديق، ومن تتلمذ على أيديهما أيضا. وقد بدأ الدكتور الهلالي - رحمه الله - نشاطه منذ الفترة الاستعمارية، واستمر إلى ما بعدها زمناً، حتى توفي بالدار البيضاء رحمة الله عليه، في شهر شوال من عام: 1407 هـ.، عن سن تناهز المائة عام، بالعد المحجري. وكان قد أصدر مجلة "لسان الدين" بمدينة تطوان سنة: 1946م. كما سافر إلى أوروبا، ثم إلى المشرق - قبل ذلك وبعد ذلك -

وجال عدة أقطار من العالم الإسلامي، داعياً إلى الله معلماً ومجدداً. ثم عاد ليتفرغ للعمل الدعوي بالمغرب، طيلة النصف الثاني من القرنين الرابع عشر الهجري، والعشرين الميلادي⁽⁵⁹⁾.

ويمكن أن نقول: إن الدكتور تقي الدين الهلالي - رحمه الله - هو المؤسس الحقيقي للمدرسة السلفية بالمغرب في العصر الحاضر؛ وذلك بما خلف من تلاميذ، حملوا راية التجديد بعده، وإن لم يبلغ أحدهم - مع الأسف - مبلغه من العلم ولا حتى قاربه! ثم بما ترك من كم هائل من الكتب والمصنفات في مختلف العلوم الشرعية، واللغوية، والأدبية، والفكرية، ومن الترجمات من اللغات العالمية وإليها. كان ذا عبقرية فذة نادرة، على مستوى العالم الإسلامي كله! وقد اشتهر من العلماء المغاربة المتأثرين بمنهجه الشيخ محمد بوخبزة التطواني - وهو أحد من أعلمهم - بارك الله في عمره. والشيخ محمد زحل، والشيخ الدكتور القاضي برهون، والشيخ محمد الصمدي، وآخرون.

والحق أن الدعوة السلفية - في أول عهد لها - كانت حركة مباركة. فقد أسهمت إسهاماً بالغاً في عودة الناس إلى ممارسة الشعائر الدينية، وخاصة الصلوات، بعدما كانت المساجد خاوية على عروشها، لا تكاد تجد فيها إلا الرجل والرجلين من الشيوخ والعجزة. فكانت كلمات المصلحين السلفيين توظف المشاعر الدينية، وتغرس الوعي الديني

59 ن. كتابه "الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة".

لدى الشباب والكهول. كما أبلت البلاء الحسن في تصحيح العقائد البدع والشرائع، من توحيد وعبادات. وكان لها الفضل الأكبر في محاربة المظاهر الشركية، من الذبح لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والتوعية بخطورة ذلك كله. وكذا محاربة مظاهر الشعوذة والخرافة والدجل، التي خدعت الناس باسم "الولاية الصوفية" و"المشيخة الطرقية"، زمنا طويلا. والتصوف السني الأصيل منها براء! ففي ظروف الجهل، وانقطاع الناس عن طلب العلم الشرعي من مصادره الأصيلة؛ تقمص بعض مدّمة من الدجاجة شخصيات "الأولياء الصالحين" وتلبسوا بما لم يُعطوه من الصفات، وخدعوا العامة بما أمدّتهم الشياطين من مخزقات، فعرضوها على أنما كرامات! وما هي بكرامات، إن هي إلا إفك كبير، ودج بل مُبِيرٌ...! فحررت السلفية أغلب المغاربة من هذا الجهل العظيم! كما أنما أسهمت في تحقيق النصوص الحديثية، وتنبية العامة والخاصة من المتدينين وطلبة العلم إلى الأحاديث الصحيحة والضعيفة، وضرورة التمييز بينها في التشريع والاستدلال. بعدما كان الناس لا يشتغلون بأي شيء من ذلك؛ فعبدوا الله تعالى بالجهل والخرافة زمنا طويلا.

وفي مرحلة السبعينات من القرن الميلادي الماضي كان بعض علماء المشرق يقدون إلى المغرب، من أمثال الشيخ أبي بكر الجزائري، والشيخ حماد الأنصاري، والشيخ محمد عبد الوهاب البنا، والشيخ عبد الحسن العباد، والشيخ محمد الحسن الكسلي السوداني، والعلامة محمد ناص

الدين الألباني، وغيرهم، رحمة الله عليهم جميعاً؛ فكان لهم أكبر الأثر على كثير من المغاربة في تصحيح الوعي الديني عقيدةً وشرعيةً. إلا أن الدعوة السلفية بالمغرب - رغم إيجابياتها الكثيرة - لم تسلم من اختلال موازين ثلاثة، الأمر الذي تولدت عنه أخطاء منهجية - سيأتي تفصيلها بحول الله - أدت إلى تمزقها وذهاب ريحها، إلا ما شاء الله. أما الموازين الثلاثة التي اختلت لها فهي:

- الأول: اختلال ميزان الحكمة، حيث لم تراعى مقتضيات البيئة المغربية وطبيعة أدوائها، ما تطيقه من أمور الدعوة والإصلاح وما لا تطيقه، وما كان حقه التقديم من ذلك، وما كان حقه التأخير. ولم تستطع التكيف مع طبيعة المغرب المذهبية والسياسية. بل إننا حاولنا أن ننقل التجربة الدعوية الحنبلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - بصورة حرفية، من دون مراجعة ولا اجتهاد، سواء فيما يتعلق ببعض أحكامها الشرعية؛ أو فيما يتعلق بمنهج تحقيق مناطها بما به أرض الواقع المغربي. وذلك كان من أكبر زلاتها المنهجية!

- الثاني: اختلال ميزان الإنصاف، حيث إننا ظلمت كثيرًا من خصومها من أهل العلم والصالح، من ذوي الاجتهادات المخالفة، ولم نعتزف لهم بفضيلة البتة! كما أننا صادرت المذاهب الفقهية جميعاً عدا المذهب الحنبلي! وهاجمت التصوف بلا تمييز بين أهلهم ومدارسهم. ولم نحترم مراتب الأحكام على البدع إلا قليلاً.

- الثالث: اختلال ميزان الحِلْم، وذلك بما مارسته من شدة مفرطة في النقد، والهجوم على كثير من علماء المسلمين، ممن ابتلاه الله بالابتداع - الحقيقي أو الإضافي - في العقائد والعبادات، أو حتى ممن خالفهم في الاجتهاد الفقهي الخض، منهم ومن غيرهم. بل إن بعض دعاة المتأخرين قد تورطوا في قاموس من الشتائم والسباب، مما لا يليق بالمسلم العادي أن يتلفظ به؛ بله العالم الداعية! وقد كنتُ يوماً بمجلس أحد مشايخهم بالمغرب، فلم يلبث أن وقع في أحد العلماء الكبار - من زعماء "الإخوان المسلمين" - عبارات نابية ساقطة! (60) أحجلتُ كلَّ من كان في المجلس، بما في ذلك تلامذة الشيخ أنف سهم! (وَلَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ لَعَنًا!) (61) لو كانوا يعلمون! فالتفتُ إلى من رافقوني آنئذٍ إلى مجلس ذلك الشيخ، وقد كانوا يرجون أن تجتمع عليه كلمة الدعوة بالمغرب، فقلتُ لهم: "إن هذا الشيخ لن يستطيع جمع شيء، ولا حتى

60 لقد كانت الحملة الظالمة التي تورط فيها بعض دعاة السلفية على الإمام حسن البنا والأستاذ سيد قطب، تقبلهما الله في الشهداء، وكذا الدكتور يوسف القرضاوي، فيها من الغلو، وسوء الأخلاق؛ ما يؤكد ما بلغني من أحد أهل العلم بالمشرق من التوظيف السياسي الخفي والإشغال المخابراتي - بصورة غير مباشرة - لنار تلك الفتنة؛ وذلك لأسباب شتى أغلبها سياسي محض، ولا علاقة لها بالعلم إلا تبعاً.

61 رواه الترمذي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

الذباب!" وكذلك كان! فلم يلبث أن تفرق الناس من حوله شذ مذر مذر...!

لقد خسرت الدعوة السلفية في امتحان الأخلاق مع الأسف؛ فأضاعت بذلك على الأمة خيراً كثيراً! (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ.) (فصلت: 34-35). ذلك ما لم يتزودوا منه إلا قليلاً!

وعليه؛ فقد كان لهذا وذاك - مما ذكرنا من موازين مختلة - أثر بالغ على انحراف التيار السلفي، وانزلاقه إلى اتجاهات أخرى، وظفت أحيانا لضرب الإسلام نفسه! فمع أواخر القرن العشرين الميلادي لم يلبث جيل الخلف من المدرسة السلفية أن تغيرت أحواله، واضطر طرب اتجاهه؛ بسبب تعرضه لفتن مذهبية، وأخرى سياسية؛ فشطت به رياح الأهواء إلى ضرب من الانحراف المذهبي، والتعصب المذهبي، و"استصنام" المشايخ والزعماء؛ مما أدى - فيما بعد - إلى أن تكونت منه تيارات وفرق شتى، كان لها أكبر الأثر في توتر المساحة الدينية بالمغرب، وإرباك مسيرة الصحوة الإسلامية إرباكاً شديداً. فتغير مفهوم "السلفية" من معناه الإصلاحية الإيجابية إلى معانٍ أخرى سلبية، لبسها لنفسه بنفسه، ثم أحجّت ضلالها المفهومي كثيراً من وسائل الإعلام المغرض؛ فكان من أمره ما كان. وبيان ذلك هو كما يلي:

لقد كان انطلاق الحركة الإسلامية بالمغرب من داخل الفكر السلفي ومتلبسا به. وذلك منذ أواخر الستينيات وبداية السبعينات من القرن الميلادي الماضي. حيث كانت التنظيمات الإسلامية الناشئة آنئذ، تستفيد من التأطير العلمي لرموز الحركة السلفية بالمغرب، من أمثال الدكتور تقي الدين الهلالي، والعلامة محمد الزمزمي وغيرهما، رحمهم الله. وذلك بوعي تام من الطرفين وإرادة كاملة. حيث كان بدء العمل الإسلامي بالمغرب في تلك اللحظة يطبعه نوع من التعاون والتآلف بين جميع مكوناته، وقلمما يدخله الاختلاف والشنآن⁶²). وذلك بسبب الحاجة المرحلية للتوحد الفكري، ضد موجة الإلحاد الماركسية، التي كانت تحتاج المغرب آنئذ.

ومن هنا؛ لم يكن ثمة تمايز بين الإسلاميين، ولا أي اختلاف جذري في العمل الدعوي والتربوي. بل كان هناك نوع من التكامل والتعاون. فما تنكره بعض التيارات السلفية اليوم على الحركة الإسلامية من "بدعية" العمل التنظيمي، كانت هي أيضا تمارسه في تلك المرحلة وتقره، من خلال تعاون رموزها مع عدد من التنظيمات السرية والعلنية. وقد استجاب الدكتور تقي الدين الهلالي لطلب الإمام حسن

⁶² اللهم إلا ما كان من حركة الشبيبة الإسلامية بقيادة الأستاذ عبد الكريم مطيع، التي خاضت في شيء من ذلك، لكنها لم تجد مستجيبا من لدن الجمعيات الإسلامية. ولم تزل كذلك إلى أن تمزق تنظيمها بسبب انحرافها المنهجي.

البنّا رحمة الله عليهما، في مراسلة تاريخية لما طلب منه "البنّا" ترشّح
أحد المغاربة؛ ليكون مراسلا لجريدة "الإخوان المسلمين"، التي كان
يصدرها في مصر، فأجابه تقي الدين الهلالي برسالة ترحيبية، ملبيا فيها
طلبه، ومقترحا نفسه ذاتها مراسلا لجريدته. وقد وشحها بيت شعري
نصه:

لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ يَا لَبَّيْكَ *** هَا أَنَا ذَا مُنْطَلِقُ إِلَيْكَ!

وكان الدكتور آنند يصدر هو أيضا مجلة "السان الدين" بتطوان.
وكان على معرفة جيدة بالبنّا وبحركته. وقد كان الإمام - رحمه الله -
وتقبله في الشهداء - هو أول من أنشأ جماعة ذات بناء تنظيمي
حديث، على شاكلة التنظيمات السياسية المعاصرة.

ثم إن الدكتور الهلالي - رحمه الله - صار بعد ذلك على صلة غير
مباشرة بتنظيم الشبيبة الإسلامية، من خلال تربية بعض رموزها العلمية
وتوجيههم. وكان - كما بلغني - يسأل عن أحوال الحركة وما قطعت
من مراحل، وعن الكتب المقررة في التربية والتكوين.

وما أن انفجرت جماعة "الشبيبة" في أواخر السبعينات وبداية
الثمانينات؛ حتى بدأ التيار السلفي بالمغرب يتبلور في صورة جديدة؛
متأثرا في ذلك بتطور أصوله المشرقية؛ بما اقتضته مرحلة ما بعد
السبعينات من مواجهة المد الشيوعي - بعد قيام الثورة الإيرانية سنة
1979م - الذي نشط على المستوى العالمي، بما تبناه من فكرة تصدير
الثورة.

ففي هذه الظروف، وبعد وفاة الدكتور تقي الدين الهلالي - رحمه الله - مباشرة، ظهرت على الساحة المغربية رموز سلفية جديدة، كان بعضها يشتغل تحت قيادته ورعايته. ولكنها ما أن أسست زمام الزعامة السلفية حتى خطت لنفسها منهاجاً جديداً، مخالفاً في كثير من سماته لمنهج الدكتور تقي الدين رحمه الله. وشيئاً فشيئاً، ومع تطور الأحداث العالمية، وما صاحبها من نشوء ما سُمي بـ "الجهاد الأفغاني"، وظهور "الأفغان العرب"، ثم ازدياد حجم التأثير الخليجي في الفكر السلفي بالمغرب؛ ظهرت الاتجاهات السلفية في صورتها الأخيرة، التي صارت تصنع جزءاً من الصورة لا يستهان به، في واقع العمل الإسلامي بالمغرب. وهكذا تطورت الاتجاهات السلفية من مجرد تماريد دعووي تحديدي، تلخص وظيفته في محاربة البدع وإحياء السنن، في العقائد والعبادات؛ إلى فاعل سياسي كبير، يُوظفُ سلها وإيجاباً على المستوى العالمي والمحلي؛ بما جعله يتعرض للزلازل السياسية، ويتمزق هو أيضاً إلى تيارات و فرق وأحلاف، تمتد من "السلفية العلمية" إلى "السلفية الإخوانية" إلى "السلفية التكفيرية القتالية"؛ وداخل كل فرقة من هذه الفرق تتناسل فرق أخرى وأحلاف؛ حتى إنك لتكاد تجد مفهوم "الجماعة" يُحتزَلُ في خمسة أفراد أو ثلاثة! حتى يتشخص - بعد ذلك - في فرد واحد، يرفع عقيرته منادياً: (أنا الفرقة الناجية)!

وهكذا أصيب التيار السلفي في عمومته - إلا من رحم الله⁶³ - بما أصيبت به الحركة الإسلامية الحزبية، من "استصنام منهجي"، جعله - في بعض تجلياته - أداة للتخريب ووسيلة للهدم! من بعد ما عايش مرحلة مباركة من الإصلاح والتجديد، والبناء المسديد. ثم صار إلى نوع من الحمود والتحجر في فهم الكتاب والسنة، وإلى نوع من تضخم "الشكلائية" على حساب الحقائق الإيمانية، والمقاصد الشرعية. فصار محجوبا عن التأثير الحقيقي في عموم الناس؛ بسبب قيامه على العنت والغلو في الدين، دون التوسط والاعتدال. فكان بعض رموزه بذلك حُجُباً عن الله؛ بما خَلَعَ عليها الأتباع - من العامة والرهعة - من استصنام شخصاني وعصمة لاشعورية. أضف إلى ذلك استصنامه أيضا للرأي الفقهي؛ بتداوله لكثير من الأحكام الشرعية، ذات الطابع الاجتهادي الصرف، وكثير من المقولات الفقهية القائمة - من الناحية المرجعية - على المذهب الحنبلي بشكل واضح! وقد ديمها لعمامة المتدينين على أنها هي "الكتاب والسنة"! وأنها حقائق قطعية لا مجال

⁶³ ليست التيارات السلفية كلها على وزان واحد. فقد تميزت مدرسة العلامة محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله - بتوازن واعتدال في الغالب؛ بسبب منهجه الحكيم في الرجوع إلى موازين العلم، وذلك بمنزلة نادرة، ودون تأثر بالأهواء السياسية والإقليمية، التي عصفت ببعض الشخصيات والمدارس السلفية. وربما تكلم بعضهم باسمه وهو منهم براء. كما سيأتي بيانه في هامش لاحق، بحول الله.

فيها للاجتهاد! مما نقلها في أذهانهم من رتبة الصواب إلى رتبة الخلق، كما نقل نواقضها من درجة الخطأ النسبي إلى دركة الباطل المطلق! ثم نتج عن ذلك أن جعل أصحابها القائلون بها في قفص الاتهام، وصنّفوا ضمن خيانة تتردد بين الكفر والضلال! ذلك أن بعض رواد هذا التيار قد أدخلوا منطق "التبديع" و"التضليل" إلى مجال الأصل فيه أن يُتَنَبَّأَ ما رُوي بمنطق "التخطيء" و"التصويب"؛ فبدل أن يتعاملوا مع الناس بميزان الخطأ الذي يُرَجَى لصاحبه - على الأقل - أجرٌ واحد؛ تعاملوا معهم بميزان "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار!" وكان ذلك كله من أشد أنواع "الاستصنام المنهجي" الواقع في صف العمى للإسلام المعاصر!

وهذا كله إنما حصل بسبب الوقوع في مجموعة من الأخطاء تتلوات التصورية والانحرافات السلوكية، نفصلها فيما يلي:

الفصل الثاني: استيراد المذهبية الحنبلية باسم "الكتاب والسنة"

لعل أول صخرة اصطدم بها الفكر السلفي الدخيل هي صخرة المذهبية. فقد كان من أخطائه المنهجية الكبرى أنه لم يتهان به أمر الخصوصيات المذهبية للمغرب؛ فمأدى ذلك إلى فشل مشروع الإصلاح. ولعل بعض من رَوَّجُوا له بالبلاد - بعد وفاة الدكتور الهاللي رحمه الله - لا خبرة لهم بالخلفية المذهبية التي تضمنتها مقولاته؛ نظراً لعدم الاختصاص بالفقه وأصوله، وبعلم الخلاف العالي من ناحية، ونظراً لأن الرسالة السلفية - من ناحية أخرى - قد أُلقيت إليهم على أنها هي العمل به. "الكتاب والسنة". فدلَّسَ عليهم كثيرٌ من الأحكام الفقهية الحنبلية، وتلقوا ذلك بنوع من الاستداحة، دون الدخول في تدقيق تلك المقولات، وتحقيق مدى قوة علاقتها بالكتاب والسنة، بعرضها على موازين القواعد الفقهية والأصولية، دلالةً واضحةً. ثم النظر في اختلاف العلماء من قبل، واستعراض أدلتهم كلاً على حدة؛ لمعرفة الراجح من المرجوح. وقد تجلَّت حنبلية السلفية الدخيلة في أمرين: الأول فقهي جزئي، والثاني منهجي أصولي.

فالأول: الذي هو التحلي الفقهي للسلفية متعلق بمجموعة من الأحكام الفقهية، التي قال بها الحنابلة قديماً، وجعلوها من اختياراتهم، فصُدِّرتْ إلينا على أنها ضرب من التجديد للدين ومحاربة للبدع،

كالقول بوجوب النقاب على النساء⁶⁴، وعدم جواز مس اللحية بشيء من القص والتهذيب مهما طالت⁶⁵، ووجوب الخروج من الصلاة بتسليمتين لا بتسليمة واحدة، وبطلان القول بأنه لا بد في ذلك⁶⁶، كما هو عند المالكية وغيرهم، وكذا القول بتكفير مارك الصلاة بناء على ظواهر النصوص⁶⁷، وتبديع القول بالقنوت في صلاة الصبح، والتشنيع على المغاربة في ذلك زمنا طويلا! مع أن أصله ثابت في السنة الصحيحة عند الشيخين وغيرهما، بل هو متواتر مقطوع به،

⁶⁴ هي رواية عن أحمد، ومشهور مذهبه موافقة الجمهور في استثناء الوجه والكفين من عورة المرأة، لكن متأخري الحنابلة أخذوا بالرواية الأضعف فصارت تقليدا راسخا، كان سببا في معارك علمية وقعت بين بعضهم وبين العلامة الألباني - رحمه الله - لما فند مذهبهم في كتابه: "الرد المفحم". وهو كتاب فيه من قوة الاستدلال ما يدل على تعمق الشيخ في الدراسات الأصولية.

⁶⁵ الفقهاء الأربعة على جواز قص ما زاد عن القبضة من اللحية؛ للأثر الوارد في ذلك. وغيرهم على وجوبه. وقال أحمد: الأولى عدم الأخذ بها مطلقا. فجعل المتأخرون من أتباعه اختياره هذا على الوجوب، فحرموا الأخذ بها مطلقا. وهو مخالف لمشهور فقهاء الصحابة، الذين هم أقعد بفهم السنة ممن جاء بعدهم من الخلف. وسيأتي لذلك بيان بعد قليل بحول الله.

⁶⁶ كان ذلك قبل أن يشتهر تصحيح الألباني - رحمه الله - لحديث

التسليمة الواحدة. ن. صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم: 163.

⁶⁷ وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله، والجمهور على خلافه.

وإنما الخلاف هو في نسخه أو عدمه، وفي علة ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له، أهو نسخ أم هو مجرد بيان عدم وجوبه؟ كما حدث في صلاة التراويح مثلاً⁶⁸... إلخ. هذا على سبيل المثال، وإلا فالفروع الحنبلية المنقولة إلينا عبر الفكر السلفي كثيرة جداً، ليس هـذا مجال تفصيلها.

⁶⁸ وقد اختلف أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بعده بين القول بنسخه والقول ببقائه سنة جارية. ومضى على العمل به غير واحد من الصحابة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، منهم عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة رضوان الله عليهم أجمعين. فعن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (إني لأقربكم صلاة برسول - صلى الله عليه وسلم - وكان أبو هريرة يقنت في الركعة الأخيرة من صلاة العشاء الآخرة وصلاة الصبح، بعدما يقول "سمع الله لمن حمده"، فيدعو للمؤمنين ويلعن الكفار). (رواه أحمد، وابن حبان. وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين). كما اختلفوا أهو قبل الركوع أم بعده؟ وثبتت السنة الصحيحة بذلك جميعاً. وقد حكى الإمام الشوكاني الخلاف في القنوت على خمسة مذاهب، وسرد أحاديث كل فريق ثم رجح في النهاية مشروعيته. وقال في نيل الأوطار: (وَأَمَّا الْقُنُوتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ فَهُوَ ثَابِتٌ عِنْدَ النَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ). فَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُخَوِّتُ فَيَقْنُتُ قَبْلَ الرُّكُوعِ). رواه النسائي وابن ماجه. وصححه الألباني في الإرواء وفي تعليقه على سنن ابن ماجه والنسائي. وقد صحح الألباني أحاديث القنوت في صلاة الصبح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن عدد من الصحابة والتابعين استمراراً بعد

هذا، وقد خَرَجَ بعضُ المعاصرين منهم أحكاماً فقهية - في بعض النوازل الجديدة - على أصول مذهبهم وقواعده، من مثل القول بتحريم التصوير "الفتوغرافي" بشتى أنواعه! اعتماداً على مطلق المنع من التصوير، بمفهومه القديم الوارد في الحديث، دون النظر إلى علل المنع؛ فوقعوا في أقيسة باطلة؛ لوجود عدة فوارق بين الأصل والفرع، ولعدم تحقيق مناط النصوص بما يناسب النازلة الجديدة بصورة سليمة⁶⁹).

وفاته صلى الله عليه وسلم؛ مما يدل على عدم النسخ، وبقاء مشروعيته. ن. إرواء الغليل: 160/2-166.

⁶⁹ كل الأحاديث الواردة في منع التصوير راجعة إلى إحدى علتين: إما لـ المضاهاة وإما الوثنية، وإما هما معاً؛ فتكون العلة مفردة ومركبة. من مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - فيما ترويه عائشة رضي الله عنها قالت: (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ ثَمَانِيَّةٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ هَتَكَهُ وَتَلَوْنَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: "يَا عَائِشَةُ! أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ!") متفق عليه. وعنّها - رضي الله عنّها - (أَنَّهَا اشْتَرَتْ ثُمْرُقَةً فِيهَا نَصَاوِيرٌ، فَلَمَّا رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَامَ عَلَى الْبَابِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ؛ فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ الْكَرَاهِيَةَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، مَاذَا أَذْنِبْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَالُ هَذِهِ الثُمْرُقَةِ؟ قُلْتُ: اشْتَرَيْتُهَا لَكَ لِتَقْعُدَ عَلَيْهَا وَتَوَسَّدَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيَقَالُ لَهُمْ:

وقد كثر النقل عن أئمة الحنابلة - رحمهم الله - بدءا بالإمام أحمد، ثم الإمام ابن الجوزي، وابن قدامة المقدسي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الرباني الإمام ابن القيم، وانتهاءً بشيوخ العصر منهم، كالعلامة ابن باز، والشيخ العثيمين رحمهم الله، وسائر المنة بسبب مؤسسة "هيئة كبار العلماء" السعودية. وجرت ألقابهم وكناهم على ألسنة المنتسبين للتيار السلفي بالمغرب؛ حتى رسخت لدى كثير منهم عبارة (قال "شيخ الإسلام") دون ذكر ماذا يقصدون بهذا اللفظ؛ لظنهم أن المعنى واضح؛ وظنهم أن شخصا واحدا هو من اشتهر به!

أُخِيُوا مَا خَلَقْتُمْ! " وَقَالَ: "إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّورُ لَا تُدْخِلُهُ الْمَلَائِكَةُ!" متفق عليه.

ولا شيء من ذلك متحقق في نوازل التـ صوير الفتـ وعرافـ ومـ لـ شـ لـ بـهـ، كالـتصوير بالـفيديو أو نحوه؛ لأن هذا إنما هو نُقْلٌ للصورة، وليس تصويرا في الحقيقة. وإنما التصوير ما كان فيه محاولة إبداع بشري. والأولى أن تقاس الصور الفتوغرافية على صور المرأة؛ إذ كلاهما يعكس الصور التي خلقها الله - جل جلاله - على أصل خلقتها الفطرية، بلا مضاهاة ولا تحوير. وأما الوثنية فلا علاقة لها بالصورة من حيث هي صورة، ولكنها متعلقة بالمعتقدات الفاسدة التي كانت، ولو تعلقت بشجر أو حجر، أو أي شيء مما لا روح له. والمـ مشكلة في نهاية المطاف راجعة أساسا إلى قضية المصطلح؛ إذ ما كان ينبغي أن يسمى مثل هذا (تصويرا)، بل كان أولى أن يوضع له اسم غيره؛ لأن المصوّر إنما هو الله جل جلاله. وهو اسم من الأسماء الحسنى.

وإنما هم يقصدون شيخ الإسلام إمام ابن تيمية رحمه الله. وهو صحيح⁷⁰، ولكن الإطلاق إنما هو عند متأخري الحنابلة فقط؛ ولذلك وجب التقييد! ولكنهم لا ينتبهون إلى أنهم في المغرب المالكي، وأن المغاربة هم أيضا عندهم من اشتهر بهذا اللقب! كالإمام ابن عبد البر الأندلسي (ت: 463 هـ)، والإمام أبي الوليد الباجي (ت: 474 هـ). ثم اشتهر به من المتأخرين: شيخ الإسلام إمام ابن العربي العلوي السجلماسي، المتوفى في القرن الماضي.

ومن اشتهر بهذا اللقب من غير المذهب قديما: المحدث الحافظ أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (ت: 450 هـ)، وأبو إسماعيل

⁷⁰ هو شيخ الإسلام بحق، العالم المحدد، والفقيه المجتهد، العابد الزاهد، تقوي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله الحارثي الدمشقي، المشهور بابن تيمية، والمتوفى سنة: 728 هـ. قَلَسَ الله سرَّهُ، ونور قبره! امتحن وابتلي، فسجن عدة مرات؛ بتحريض من جهلة الطريقة، وبعض علماء السوء، حتى إن أحدهم باء بتكفيره ظلما وعدوانا! ثم كفر كل من أطلق عليه لقب "شيخ الإسلام"! كذا! وهذا من أعظم الباطل والبهتان! وقد أورد صاحب "كشف الظنون" عنوان مُصَنَّفٍ للشيخ الإمام حافظ الشام، الشمس بن ناصر الدين، المتوفى سنة: 842 هـ، يبتل فيه تلك الدعوى، وهو كتاب: (الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية "شيخ الإسلام" كافر)؛ عندما ما صرح بذلك أحدهم في مجلسه، في مسألة الطلاق المشهورة. ن. كشف الظنون لحاجي خليفة: 838/1.

عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي الحنبلي (ت: 481 هـ)، وسراج الدين البلقيني الشافعي: (ت: 805 هـ)، والقاضي شرف الدين يحيى بن محمد المناوي الشافعي (871 هـ)، والقاضي أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري المصري الشافعي (ت: 928 هـ)، وغيرهم كثير. وأما من وُصفَ به في غير اشتهار فأكثر من أن يُحصَى.

كما الدولة العثمانية بتركيا أيضا كانت تعتمد هذا اللقب؛ وذلك لتمييز منصب رئيس العلماء بـ "دار الحكمة" في اسطنبول، على غرار "شيخ الأزهر" بمصر. ومن أشهر شيوخ الإسلام بالدولة العثمانية: شيخ الإسلام العلامة مصطفى صبري رحمه الله.

وغير ما مرة سمعت قولهم: (قال إمام أهل السنة والجماعة!) دون تعيين المعنى؛ لظنهم أنما هو شخص واحد أيضا من اتصف بهذا الوصف من دون العالمين! وإنما يقصدون به الإمام أحمد بن حنبل (ت: 241 هـ). رحمه الله. وكأن مالكا بن أنس (ت: 179 هـ) - وقد عاش قبله بأكثر من قرن ونصف القرن من الزمان - لم يكن كذلك! أو كأنه كان إمام طائفة أخرى، غير "أهل السنة والجماعة"! وقد عُلِمَ تاريخيا أن مالكا رحمه الله هو المؤسس الأول - على المستوى المذهبي والاجتماعي - لمدرسة "أهل السنة والجماعة" فقهاً وعقيدةً! وكل الأئمة الأربعة هم أئمة "أهل السنة والجماعة"، وما كتاب "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" لابن تيمية عنا ببعيد! ولكن الهوى الحنبلي المدسوس في الفكر السلفي الوافد، قد قصر ذلك الوصف على الإمام أحمد رحمه الله، ومعلوم ما في

ذلك من التقوية لآراء الحنابلة الفقهية إذا اختلف الناس! فردد بعض المغاربة ذلك؛ بسبب الجهل حينئذ، وبسبب الجحالة لمصادر التمويل في الخليج أحيانا أخرى. كل ذلك والقوم يدعون محاربة المذهبية! (71) وقد بُدِّعَت الخلاصاتُ الفقهية المالكية بالجملة وبلا تمييز! وصارت أقوال المغاربة باطلة حتى يثبت بصحتها الدليل؛ بينما ما أفتواهم هم صحيحه حتى يثبت بطلانها الدليل!

ومن أغرب الأشياء التي صادفتها أكثر من مرة في بعض مصنفاتهم عند تخريجهم للأحاديث أنهم - مثلا - يعزون الحديث إلى مسند أحمد - إن كان في المسند - ثم إلى صحيح البخاري أو مسلم أو هما معا، ثم إلى كتب السنن الأربعة مثلا، ويكون الحديث المقصود بالتخريج والتوثيق قد سبق مَالِكٌ - رحمه الله - إلى إخراجِه في الموطأ، ولكنهم يُعْفِلُونَ ذلك إغفالا! والأمر يتكرر في غير ما مصنف ورسالة! فإن كان القصد الاقتصار على المصادر الصحاح فالعزو إلى البخاري كافٍ. والموطأ أصح من المسند بالإجماع! وأما إن كان المقصد الترتيب التاريخي للمصادر فالموطأ أقدم من المسند. فلم يبق إذن إلا التأثير اللاشعوري أو الشعوري بالذهن زعة الحنبلية.

والثاني: هو التحلي الأصولي المنهجي، وذلك هو المسمى عند الأصوليين بـ "الاجتهاد في إطار المذهب". وهو من أدق الأمور المذهبية

71 قد بينا بطلان ذلك بما فيه الكفاية في كتابنا: (مفهوم العالمية).

حيث لا يستطيع اكتشافها إلا أهل الاختصاص من أهل العلم. وهذا ينسحب على كثير من الفتاوى المعاصرة التي قال بها بعض علماء التيار السلفي. وقد ذكرت غير ما مرة عند بعض الحوارات العلمية، مع بعض إخواننا منهم، أن هذه المسألة أو تلك، إنما هي تخریجة حنبليّة، وليست نصا من الكتاب والسنة، بل هي ضرب من الفهم لهم؛ فَيُعْتَرَضُ علينا بأن القائل بما إنما هو فلان أو علان من مشاهير العلماء، وهو عندهم ليس متمذبا أصلا، لا بالحنبلية ولا بغيرها؛ بدعوى أنه يخالف أحمد بن حنبل رحمه الله في كذا وكذا. وهذا من أكبر الجمل وأعظمه! فإن هذه الدعوى باطلة علميا وواقعيًا؛ لأن المذهبية ليست بالضرورة تقليدا لإمام المذهب في الفروع، بل قد تكون مجرد تقليد له في الأصول، مع إمكان مخالفته في الفروع. وهذا هو "الاجتهاد في إطار المذهب". وأما المجتهد في الأصول والفروع معا فهو "المجتهد المطلق" حقا. وهو الذي اتخذ لنفسه منهجا أصوليا غير مسبوق، وترتيب استدلالي خاصا به. وهو من النادرة بمكان! بل هو في تاريخ الأمة صنف معدود! وهم أرباب المذاهب البائدة والباقية.

وقد خالف أبو يوسف ومحمد بن الحسن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان، ومع ذلك صنفهما العلماء ضمن طبقات الحنفية. وكذلك كان الأمر مع الإمام ابن القاسم، وابن وهب، وسه حنون، وابن الماجشون، كلهم خالف الإمام مالكا، وهم مع ذلك من رواد المذهب المالكي. وقد تفرد علماء المغرب والأندلس باستنباطات خالفوا فيها

الإمام مالكا، من أمثال الإمام ابن عبد البر، وابن رشد، وأبي الوليد الباجي، وأبي بكر بن العربي المعافري، وأبي عبد الله القُرطبي، والإمام أبي إسحاق الشاطبي، وغيرهم كثير، حتى الله تهت مقولة أندلسية جرت مجرى المثل في الفقه المالكي المغربي والأندلسي، وهمي قولهم: (لَسْنَا مَمَالِكَ لِمَالِكٍ!) ورغم ذلك كله كانوا حماة المذهب المالكي ومجدييه عبر التاريخ. وقد واجه الإمام أبو الوليد الباجي معاصره ابن حزم الظاهري - رحمهما الله تعالى - مواجهة شديدة؛ دفاعا عن المذهب المالكي، مع أن الباجي يعتبر من المجتهدين لا من المقلدين الحرفيين لمالك. وما أنكر أحد من هؤلاء وأولئك "مالكية" قط، ولا تَنَكَّرَ لها!

وكذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمتهما الله عليهما، وكثير من علماء العصر، كالعلامة ابن باز، والشيخ العثيمين، والعلامة ناصر الدين الألباني⁷²، وغيرهم من فضلاء المجتدين. هم

⁷² بعضهم لا يقبل أن تصنف العلامة محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله وأجر له المثوبة - ضمن حنابلة العصر؛ وذلك بسبب ما صدر للمذهبية في أذهانهم من معنى قدحي! وليس الأمر كذلك، وإنما المذهبية - بالمعنى الأصولي - لا تعدو أن تكون عبارة عن منهجية في الفقه عن الله ورسوله، وما دون ذلك فهو فوضى! ويشهد الله أن من أحب حنابلة العصر إلى قلبي اثنين: الشيخ العثيمين، والشيخ الألباني رحمه الله عليهما. فأما الأول فقد رأيته في مكة بالمسجد الحرام

وهو يُدرّس، وقد كان شيخاً فقيهاً حقاً، ربانياً مريباً، محبوباً لدى العامة والخاصة، لطيف المعشر رقيق القلب، حكيماً.

وأما الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله - فقد كان رجلاً في أمة، وأمة في رجل! وأحسب أنه مر في حياته بثلاثة أطوار، كما لا رأت في سيرته الذاتية واستنبطت من تطور منهجيته في الفتوى. فبعدما برز في العلم، كان محدثاً متيناً، ثم صار مجتهداً في الحديث، بل "أمير المؤمنين" في الحديث! فقد أنجز - رحمه الله - من التحقيقات والدراسات الحديثية ما ينوء به جيل من العلماء! وقد بارك الله له في علمه وفي وقته وفي عمره؛ فكان ما كان من أمره. ثم صار بعد ذلك فقيهاً مكيناً، بل مجتهداً في الفقه! فقد اشتغل بمنهج حنبلي في الفهم للأدلة، وترتيب الحجاج والاستدلال، لكن بروح استقلالية نادرة، فكان بذلك مجتهداً في إطار المذهب؛ ولذلك ربما خالف الإمام أحمد بن حنبل في بعض المسائل، على عادة المجتهدين من أتباع المذاهب، كابن تيمية عندهم مثلاً، وكأبي الوليد الباجي وأبي بكر بن العربي عندنا.

والعجيب أنه في بعض الأحيان كاد أن يكون ماركسياً؛ لقوله بالعمى، لا أقصد "عمل أهل المدينة"، ولكنه كان يلحظ عمل الصحابة والتابعين، خاصة في السنن ذوات الهيئات، ويعتمده في الاستدلال والترجيح، ويقيد به مطلقاً الأحاديث، كما في فهمه الخاص لمعنى "قص الشارب" و"إعفاء اللحى"، وقوله بعدم وجوب النقاب على النساء، وعدم وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة بعد الركوع. كل ذلك بناء على تقييد مطلقات الأحاديث بما جرى عليه العمل لدى الصحابة والتابعين. وله فتاوى أخرى عجيبة اعتمد فيها إضافة إلى النصوص الشرعية ما عمل به السلف الصالح في المسألة، وكذا أقوال فقهاء الأمصار الكبار من الأربعة وغيرهم. وذلك هو الفقه حقاً. وقد كان من قبل يميل إلى الأخذ

مجتهدون حقيقة، ولكن في إطار المذهب الحنبلي، أي باستعمال أصوله وقواعده في الاستنباط والاستدلال. ولا يعيب ذلك أحداً منهم أبداً. ومن هنا؛ فكثيراً ما يفتي أحدهم بحكم ما، في أمر حادث جديد من نوازل العصر؛ فنقول هذه فتوى حنبلية، بمعنى أنها مخرجة على أصل نوازل العصر.

بظواهر النصوص في الأوامر والنواهي مطلقاً، ولا يميل إلى تخصيص ولا تقييد إلا قليلاً، على عادة فقهاء الحنابلة في هذا الشأن. وبذلك أزعج العلامة الألباني رحمه الله كان من المحددين حقيقة في هذا العصر.

إلا أن الملامة التي لحقته من بعض الجهات راجعة في الحقيقة إلى ما شاكل صدرت من بعض أتباعه المدسوسين على مدرسته! وربما استمعت إليه أحياناً - كما في بعض الأشرطة المسجلة من دروسه - كيف يحاول بعض طلابه أن يورطه في أجوبة تثير الفتن؛ فيكتشف الشيخ رحمه الله ذلك بكائه؛ فيرد على المسائل مؤدباً إياه بعبارات شديدة، قبل أن يفصل في الإجابة على ميزان حكيم. وغير ما مرة ذكر في مجلسه بعض العلماء من مخالفيه بالسوء؛ فيغضب لذلك ويرد على من باء بتلك الغيبة بقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا. اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة: 8)؛ وفرق كبير بين مدرسة سلفية المعتدلة، وبين ما تفرع عنها من مدارس، انحرفت إلى "سلفية شككالية"، أو "سبائية"، أو "قتالية"، أو "مخابراتية"! وتلك قضية أخرى. وقد علم في كتاب الله (الْأَثَرُ وَالْأَزْرَةُ وَزَرَّ أُخْرَى!)؛ فتقبله الله في الصالحين المصلحين، وغفر لهما ولهما أجمعين. آمين.

المذهب. كما نقرأ لبعضهم فتاوى مخرجة على أصل قول أبي حنيفة،
ككثير من فتاوى العلامة يوسف القرضاوي مثلاً.

وكان حرياً بمن تأثروا بالدعوة السلفية من المغاربة أن ينتبهوا إلى
هذا كله. لكنهم لم يفعلوا. بل نقلوا كثيراً من الأقوال الحنبلية نقلاً
حرفياً، على أنها هي الكتاب والسنة! لا أنها ضرب من الفقه للكتّاب
والسنة. سواء في ذلك ما هو حنبلي محض، أو ما هو مُخَرَّجٌ على
قواعد الحنابلة. فاصطدموا بما جرى عليه العمل من الفقه المالكي
المغربي. وتكسرت تياراتهم على صخرة الجهل بالاختلاف المذهبي!
ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله. والله وحده المستعان.

الفصل الثالث: الأخطاء المنهجية للتيار السلفي في

تدبير الشأن الدعوي بالمغرب

لقد ترتب عما سبق بيانه من إشكالات مذهبية، وقد سارع التيار السلفي بالمغرب في عدة أخطاء منهجية، متفرعة عن استصنامه الحنبلي المشرقي شكلا ومضمونا، نوجزها في خمسة أخطاء فرعية، هي كما يلي:

- الخطأ المنهجي الأول: الإعراض عن المذهب المالكي واختلال

ميزان الأولويات

لقد كان حريا برواد التيار السلفي بالمغرب أن يدرسوا تاريخ المذهب المالكي؛ لتأصيل مقولاتهم فيه. فللمالكية أيضا سلفيتهم لا حركتهم. كانوا يعلمون! فقد اشتهر منهم الإمام ابن عبد البر، وابن أبي زينة، والقيرواني، والإمام أبو إسحاق الشاطبي، والإمام أحمد زروق الفاسي، وغيرهم كثير. فهؤلاء من أبرز فقهاء المالكية الذين اشتهروا بمحاربة البدع في العقائد والعبادات والتصوف، لكن دون النقص لمذهبيةهم المالكية، ولا التنكر لتصوفهم السني، تماما كما صنع الإمام ابن القيم رحمه الله في الحفاظ على حنبليته الاجتهادية، وتصوفه السني الأصيل معا!

لكن إخواننا بالمغرب لم يستطيعوا التخلص من تقليد المذهب الحنبلي حتى على المستوى المدرسي البسيط! فقد كانت مدارسهم العتيقة تركز في الفقه على الخلاصة الحنبلية المشهورة "زاد المستقنع" وشروحه، بدل الخلاصة المدرسية المالكية: "مختصر خليل" أو "رسمالة ابن أبي زيد القيرواني"، وشروحهما، أو "القوانين الفقهية" لابن جزي الغرناطي مثلاً. ثم الإحالة في الفتوى العامة على المصاير الحنبلية ككتاب "المغني" لابن قدامة، مع وجود الأمهات المالكية التي تبرز كتاب "المغني" مادةً ومنهجاً، وحنةً واستدلالاً، ككتاب "الاستذكار" لشيخ الإسلام حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر الأندلسي (ت: 463هـ . .)، وكتاب "التمهيد" له أيضاً، وكتاب "النوادر والزيادات" لابن أبي زيد القيرواني (ت: 386هـ .)، وكتاب "المعونة" للقاضي عبيد الله بن أبي البغداد (ت: 422هـ .)، وكتاب "المنتقى" لأبي الوليد المصنف (ت: 474هـ .)، و"البيان والتحصيل" لابن رشد الجدل (ت: 520هـ . .)، و"المقدمات الممهدات" له أيضاً، و"مشارك الأنوار على صحاح الآثار" للقاضي عياض السبتي (ت: 544هـ .)، و"أحكام القرآن" و"عارضه" للأحوذ، وكتاب "القبس"، كلها لأبي بكر بن العربي المصنف (ت: 543هـ .)، و"الجامع لأحكام القرآن" لأبي عبد الله الرطبي (ت: 668هـ .)، ثم "الذخيرة" للإمام الرافعي (ت: 684هـ . .) ... إلخ. فالمكتبة المالكية هي من السعة والضخامة والشمول؛ بحيث لا تستوعبها الأعمار، ولا تحصرها الأقطار. ولكن المذهب المالكي اللاشعوري

استوطن قلوب كثير من دعاة السلفية الحنبلية فصعب عليهم الرجوع إلى تراثهم الخاص.

والتنافس بين المشرق والمغرب قديم، فمن قبلُ كَتَبَ أحدُ المشاركة تقریظاً على كتاب "مشارك الأنوار" للقاضي عياض السبتي، فيه شيء من التعريض بالمغاربة، وهو قوله:

مَشَارِقُ أَنْوَارٍ تَبَدَّتْ بِمَغْرِبٍ *** فَيَا عَجَباً كَوْنُ الْمَشَارِقِ بِالْمَغْرِبِ!
فلم يقبل القاضي - رحمه الله - تَعَجُّبَ صاحبه من صدور العلم عن المغاربة؛ فرد عليه بيت مُعَارِضٍ له قال فيه:
وَمَا شَرَّفَ الْأَوْطَانَ إِلَّا رِجَالُهَا *** وَإِلَّا فَلَا فَضْلَ لِثُرْبٍ عَلَى ثُرْبٍ!
ومشهور جدا - لدى المغاربة - إنشاد الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوْ الْعُلُومِ مُنِيرَةٌ *** وَلَكِنَّ عَيْبِي أَنْ مَطْلَعِي

الغرب!

وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالِعٌ *** لَجَدْتُ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي

النَّهْبُ!

وشهد الله أننا لا نقول هذا تعصبا للمغاربة، ولا للفقهاء المالكي، ولكننا نقوله بيانا للحق وترجيحا للحكمة، ولوجوب مناسبة الزممان والمكان والإنسان والبيئة، في الدعوة إلى الله، إحياءاً لما للسنن وإمامة للبدع.

ثم كان أولى بمن تصدى لتحديد العلم بالمغرب صادقاً؛ أن يهـ بدأ بصغار العلم قبل كباره، كما رُوِيَ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في صحيح البخاري⁽⁷³⁾. فيؤسس التعلم على المذهب المالكي أولاً، ثم يرتقي به إلى محاولة الاجتهاد في إطاره، ثم إلى رتبة الاجتهاد المطلق، دون التعرض لمذهب العامة مما جرى به العمل من مذهبهم؛ لما فيه من الفتن ما الله به عليم!

ثم كان أولى بهم أن يتجردوا للدراسات العلمية التأصيلية. دون الاستغراق في القيل والقال، وسهر الليالي في اغتياب الرجل! وأن يتفرغوا لخدمة الكتاب والسنة من خلال تأصيل كتب الفقه المالكي، دلالةً واستدلالاً، وتصفيته مما علق به في عصور الانحطاط من البدع، كما حصل لغيره من سائر المذاهب الفقهية بلا استثناء؛ بسبب فشول الجهل وسيطرة التقليد على العباد. وأن يهـ يشتغلوا به رد كل متون به ومنظوماته إلى أصلها من الكتاب والسنة، وبيان طرائقها الاسـ تنباطية، وما أخذها الاستدلالية، وبنائها - من الناحية المنهجية خاصة - على الأصول والقواعد التي قال بها مالك رحمه الله، وجعلها أساساً لمذهبه. ولا يمنع ذلك أبداً من رد بعض الأقوال وإبطال بعض الأحكام - بتلك القواعد والأصول نفسها - مما تبين أن غيره أرجح منه وأولى، لكن على علم وبصيرة، كما صنع من قبل أئمة المذهب الكبار، من أمثال

⁷³ صحيح البخاري: كتاب العلم، باب: "العلم قبل القول والعمل".

الإمام ابن عبد البر، وابن رشد الجد، وأبي بكر بن العربي، وغيرهم. وما عاب أحدٌ من أهل العلم عليهم صنيعهم، بل اتخذوهم أئمة لهم، وصاروا بهم مقتدين، وباجتهادهم متعبدين؛ لمّا تواتر من تفوق علمهم، وخالص نصحتهم، وصفاء صدقهم، وبالغ حكمتهم.

ثم الاشتغال من خلال ذلك كله - لو كانوا عقلاء - بتربية جيل من العلماء المجتهدين، والحكماء الربانيين، لتأسيس نهضة علمية إصلاحية بالمغرب؛ إذ بغير ذلك لا يكون لهم ولا للدين شأن.

هذا، وإن الحركة السلفية بالمغرب - بعد هذا وذاك - قد فقدت نصرة الناس في المجال الدعوي الصرف؛ بسبب اضطرارهم من زان الأولويات الدعوية، والجهل الفظيع بقن "التواصل" عند مخاطبة الجمهور؛ وذلك بالتركيز على المفاصل الجزئية الخلافية، وإهمال المفاصل الكلية الإجماعية القطعية! وعدم مراعاة حاجة البيئة الدعوية، وطبيعة مشكلاتها، بل إن أغلبهم ينقل إلينا معارك ليست واقعة ببلادنا أصلاً، أو ربما نحن نعاني ما هو أعظم منها، فلا ينتبهون إلى الاختلاف البيئي، وينخرطون في إيقاظ فتن ومشاكل هي عندنا بحكم الميثة؛ فيفسدون ولا يصلحون، ويدمرون ولا يعمرّون!

وإن تُعْجَبَ فَعَجَبٌ أمر من يشعل نيران معارك كلامية حول قضايا "الذات والصفات"، و"الإثبات والتعطيل أو التأويل"، في بيئة مات فيها علم الكلام أصلاً! أو ربما مات التدين ذاته! ومن أغرب الغرائب وأكلح الطامات أن يثار مثل ذلك في أوروبا، بين شباب أضاعوا دينهم

آبائهم وأجدادهم من أبناء الجاليات الإسلامية هناك، وكذا بين قوم
حديثي العهد بالكفر من المسلمين الجدد! وما كان أحد حوجاً هؤلاء
وأولئك إلى التلطف والتألف! ولكن العمى المنهجي يجعل أولئك
"الدعاة" مصرين على البدء بما حققه التأخير، أو ربما حققه الإلغاء كلية!
فيكونون بذلك مجرد موظفين للفتن لا أقل ولا أكثر!

ومن الاختلال المنهجي أيضاً الغلو في محاربة البدع، وعدم التمييز
بين "البدع الحقيقية" وبين "البدع الإضافية"، على ما قرره العلماء في
هذا الشأن ورتبوه، من أمثال أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله⁷⁴. ثم بين
بدع العقائد وبين بدع العبادات. وبين ما الشأن فيه أنه مع مادة في
الأصل؛ لكنه سبق مساق الوسيلة التعليمية، كقراءة الحزب القرائي
بالمساجد، وأشكال أداء الأذكار والدعوات، وبين ما هو عبادة محضة
مقصداً وغايةً، كحقائق الإيمان الكبرى من إخلاص المدين، وأداء
الصلوات، خشوعها وركوعها وسجودها. فمن الخطأ عدم مراعاة
الأولويات فيما ينبغي البدء به من ذلك كله، وما ينبغي الختم به،
وتقديس الاجتهادات الحنبلية في ذلك كله!

ومن أغرب ما شهدته من بعضهم، في مجلس جمعة مع بعض
المثقفين، وقد كان أحدهم من أشهر السكّيرين! متعرب الفكر والثقافة،
أبعد ما يكون عن الدين وأهله! ثم ثمله الله برحمته، فتألم مني إلى ربه!

⁷⁴ كتاب الاعتصام: 210/1.

وهجر حياته الأولى هجرانا تاما، وشرع في أداء المصلوات والتمسك بالزمام الأوقات. ولكن ذلك كان على يد بعض إخواننا من "رجال الدعوة والتبليغ"⁷⁵، فلما تكلم صاحبنا في المجلس صادف أن كان به أحد المتأثرين بالسلفية الحنبلية؛ فأعرض عنه مشمئزاً، وقد انعقدت عمة سنة

⁷⁵ وإني لأعلم أن جماعة "الدعوة والتبليغ" ربما شاب منهجها الدعوي شيء من الاختلال؛ بسبب إسناد بعض المهام الدعوية للعوام، والغلو أحياناً في تمجيد الوسائل الدعوية المستعملة عندهم؛ لدرجة رفع بعضها إلى مرتبة الوجود الشرعي، فيقعون بذلك في إلزام ما لا يلزم! وفي عدم احترام ميزان الأولويات الشرعية في حياة الأشخاص، ونحو ذلك. إلا أنني أشهد - مع ذلك - أنها ظلمت من لدن التيارات السلفية ظلماً كبيراً، فقد نجسوها حقها؛ إذ جردوها من كل حسناتها، ولم يعترفوا لها بأي فضيلة! وصاروا تجاهها إلى غلو مضاد! وإننا لنشهد أنها قد أفادت المغرب كثيراً؛ بنشر الخير والصالح زمناً ليس باليسير، خاصة في البوادي، وفي بعض المناطق النائية، مما لم تستطع لا السلفية ولا الحركة الإسلامية الحديثة الوصول إليه. وأما في المدن فقد اقتحمت الحمارات والملاهي بدعوتها الحكيمة، متحملة كل أنواع الأذى النفسي والمادي! وهي لا تواجه أحد إلا بالكلمة الطيبة، وبالصبر على الأذى. وقبلما وجدت في العالم الإسلامي جماعة دعوية بلغت مبلغها من حيث أخلاق الحلم والصبر والتضحية العجيبة، لولا بعض الجهل الذي خالط أقوالهم وأفعالهم. وكان الأولى بالمصلحين السلفيين مواجهته جماعة التبليغ بالنقد البناء، معترفين لأصحابها بما أجزوا من خير، وناصحين لهم بما فيهم من خطأ. وإنا نعصمة الأنبياء وحدهم. وكل ميسر لما خلق له. وإننا الموفق من وفقه الله.

وجهه! حتى شعرتُ بالخرج الشديد إزاء صنعه! وقد كان التأنيب
الحديد أشد ما يكون في حاجة إلى الاحتضان والتلطف والتمليح!
خاصة وأن زملاءه القدامى قد أشعلوا نار الحرب ضده! ثم تكلمت مع
صاحبي - بعد ذلك - بنوع من اللوم والعتاب الرقيق، قائلاً له:

- ألا ترى أن صاحبنا قد صلح حاله؟

- فأجابني بسرعة: ولكن المنهج فاسد!.. (كذا!)

وكان ألمي لهذا أشد مما وجدت من عبسته! والله المستعان!..

فأي منهج هذا الذي يسوي بين فسوق وعصيان أقرب إلى الكفر؛
وبين صلاح وإيمان ربما شابه بعض دخن؟ تالله إن هذه الموازين لفهي
ضلال مبين!

وإنه لمن الجهل بالبيئة وحاجاتها مثلاً أن تُقام الدنيا وتُفقد حُرمة ما
على قراءة "حزب القرآن" في وقت لا سلطان لهم عليه ولا على الناس!
ولا إمكان لسلكوهم في الأحسن والأصلح، تلاوةً وتدبراً. وإنما النتيجة
الطبيعية لعمل مثل هذا، في بلد مثل هذا، وفي زمان مثل هذا؛ هي
حجب القرآن على الناس! والإسهام في تضيق دائرة الاشتغال به
والإقبال عليه! ولو علموا طبيعة الظروف الخيطة بهم لكانوا هم أول من
يقرؤه! ظروف نبت فيها جيل مغرب العقل مفتون الوجدان! قد تجرد
منه تيار يناضل من أجل حذف القرآن كله من البلاد، وانتزاعه من
قلوب العباد! ورحم الله ابن تيمية، فقد دبح كلاماً أغلى من الذهب!
في سياق وضع موازين المصالح والمفاسد، في فقه الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، فقال في (القاعدة العامة: "فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد، والحسنات والسيئات، أو تراخيت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها" (...)) وعلى هذا إذا كان الشخص أو الطائفة جاعلين بين معروف ومنكر، بحيث لا يفرقون بينهما، بل إما أن يفعلوهما جميعاً أو يتركوهما جميعاً؛ لم يحز أن يؤمروا بمعروف، ولا أن ينهوا عن منكر، بل يُنظر: فإن كان المعروف أكثر أمر به وإن استلزم ما هو دونه من المنكر. ولم ينه عن منكر يستلزم تقويت معروف أعظم منه. بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله! والسعي في زوال طاعة وطاعة رسوله! وزوال فعل الحسنات!

وإن كان المنكر أغلب نهي عنه وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف. ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر! وسعياً في معصية الله ورسوله! وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان، لم يؤمر بهما ولم ينه عنهما. فتارة يصلح الأمر، وتارة يصلح النهي، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهي، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين. وذلك في الأمور المعينة الواقعة. (76)

وبالقطع، فإن النهي عن قراءة الحزب القرآني في هذه الظروف لا يؤدي إلا إلى الخسائر الكبرى في الدين والدعوة! ولا ينبغي منع إلا المفاسد التي تربو بكثير على مصالح إحياء سنن التلاوة السننية، كما

76 مجموع فتاوى ابن تيمية: 129/28-130.

كانت على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبه! مع أن إحياء السنن بنازلتنا هذه غير ممنوع من الناحية الواقعية، وإنما هو فقط مشروط بالسكوت على طريقة تعليمية، عمل بها المغاربة منذ القديم؛ بهدف تعليم العامة القرآن، وإسماعه لمن لا قدرة له على سماعه إلا بهذه الوسيلة. والحاجة إليها اليوم أكد وأشد لو كانوا يصررون! والمعركة الإيديولوجية اليوم حامية الوطيس حول الهوية الحضارية للوطن كله! ومعلوم أنه لا مشاحة في الوسائل التعليمية. وشهد الله، ما رأيت غلوا في الإصلاح الدعوي ببلاد المغرب، مثل إصرار بعضهم على محاربة الطريقة الجماعية في قراءة القرآن، وأضراب ذلك من الوسائل التي جرى بها العمل تربيةً وتعليماً!

نعم، لقد اختل ميزان الأولويات فعلا لدى كثير من متزعمي التيار السلفي بالمغرب؛ فدخلوا في معارك وهمية مع خصوم وهميين، وتركوا العدو الحقيقي يعيش في الأرض فسادا وهم لا يشعرون. إن المشكلات الدعوية للبلد هي غير ما يتصورون، وغير ما يتوهمون، وغير ما يستوردون من المشرق من قضايا ومعارك، هي بالنسبة لواقع المغاربة ترف زائد لو كانوا يبصرون! معاركنا شيء آخر تماما! المغرب يعاني من اهتزاز منظومة القيم وأصول الأخلاق الإسلامية، ولامية، ومن وطأة "الفجور السياسي" كما فصلناه قبل⁽⁷⁷⁾، ومن ارتجاج الإيمان لدى

⁷⁷ في كتابنا: "الفجور السياسي".

بعض العامة والخاصة، ومن الإيديولوجيات "الأخرى" المناقضة للدين عقيدةً وشريعةً، ومن تسرب الطائفيات والمذهبيات المخالفة لشواهد الوطن الدينية أصولاً وفروعاً! ومن تدهور "التعليم الشرعي"، وانحمار منظومة التعليم كله! ومن اضطراب المناهج التربوية الرسمية والشعبية، ومن الجهل العام بما لا يَسَعُ المسلم جهله، من المعلم من المدن بالضرورة! مما تقوم عليه أصول العبادات الكبرى. وكل هذه القضايا الحقيقية هي أصول العمل الديني التي أعرض عنها السلفيون واشتغلوا بما وراءها بأزمة بعيدة! وإنما اشتغل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما قرره القرآن في غير ما موطن من آياته وسوره، بما أسمى الله به "وظائف النبوة"، من مثل ما أوردناه قبل من قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)(آل عمران:164).

- الخطأ المنهجي الثاني: الغلو في التحقيقات العقدية

وذلك بالدخول في مواجهة الأشعرية بإطلاق، دون تحري ولا تقييد، والأشعرية مدارس لو كانوا يعلمون. ثم القيام بإحياء الفِرَق البائدة؛ وبالدخول في معارك ماتت، وبعث فتنها من جديد. وتصنيف الناس في العصر الحاضر على موازينها، دون مراعاة التغيرات المعاصرة، ولا أحوال الزمان وأهله. ثم الغلو في التحقيقات العقدية وإدخال العامة في متاهاتها! مما لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم - ولا

أصحابه من بعده! الشيء الذي أدى إلى تعقيد الدين والغلو في أخذ أحكامه، ثم إلى نفور عموم الناس من الإقبال عليهم. وما كان ذلك من منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من حجة بل السابقين على بيان الفرق قديما إلا الضرورة التاريخية؛ دفاعا عن الدين والتوحيد خاصة. وربما جاز شيء من ذلك اليوم في بلاد أخرى، استمرت فيها الطائفية وبقايا الفرق القديمة. أما المغرب فقد بقي بعيدا - والحمد لله - عن ذلك كله. حتى قمنا نحن اليوم بإثارة الجدل الكلامي المعقد بين الناس، بل بين العامة منهم، فاسه تهوى الشيطان بعضهم وجعلوا ينطقون بمقالات المبتدعة.

وعموم الناس في بلاد المغرب لا يعرفون "الأشعرية" ولا "الاعتزال" ولا "الإرجاء". بل حتى أغلب المثقفين لا يعرف ذلك! وإنما هو عندنا أمر خاص بأهل الاختصاص الكلامي والفلسفي فقط. والعقيدة "الأشعرية" بمعناها الكلامي الدقيق - لمن يملك البصيرة - لا وجود لها بالمغرب إلا في بطون الكتب، ولا علاقة لها بحياة الناس اليوم. والشائع بين المسلمين المغاربة اليوم إنما هو الأشعرية "الأصلية"، التي لخصها أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - من نصوص الكتاب والسنة، وانتصر فيها للإمام أحمد في محنته ضد المعتزلة. وهي عقيدة الإمام

مالك قبلهم جميعا كما هو معروف. ولا وجود اليوم في التدين العام للأشعرية "الجُؤينية" المُحدثة، ذات الطابع الكلامي الصرف⁽⁷⁸⁾.
فانظر كم يكون حجم المفاصد التي يستجلبونها عندما يجلسون إلى العوام وأشباه العوام يحذرونهم من التأويل والتعطيل! وهم أص لا يعرفون لا هذا ولا ذاك! وإنما عقيدتهم سليمة على الفطرة الأصيلة البسيطة، التي جاء بها القرآن الكريم، ويستنها السنة النبوية، بلا تعمق ولا تكلف. ولو سألت أي مغربي اليوم بصورة تلقائية، فقلت له: "أي من

⁷⁸ كان الإمام أبو المعالي الجُؤيني - رحمه الله - هو أول من دشن الاتجاه التأويلي في العقيدة الأشعرية؛ فانحرف بذلك عن أصل قول الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله. ثم جاء أبو حامد الغزالي - وهو التلميذ المخلاص لشيخه الجُؤيني رحمه الله عليهما - فرسخ عقيدة التأويل بما تجاوز به شيخه أبا المعالي! فكانت هذه العقيدة "الجُؤينية" بعد ذلك تنسب إلى الأشعري وهو منها براء. وقد بقيت عقيدة علماء المغرب تتأرجح بين أشعرية أصيلة وجُؤينية محدثة. وقد حاول غير واحد من علمائنا ردها إلى أصولها منهم العلامة ابن جزري الغرناطي في كتابه: (النور المبين في بيان عقائد الدين). ومن قبله قال أبو بكر ابن العربي المعافري تلميذ الغزالي قولته المشهورة فيما وقع فيه شيخه من غلو تأويلي في مجال الإلهيات: (شيخنا أبو حامد بلغ الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع!) سير أعلام النبلاء للذهبي: 327/19. وقال أيضا: (شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر!)، مجموع فتاوى ابن تيمية: 66/4. والرسالة الصمدية: 250/1.

الله؟" لقال لك، كما قالت الجارية الأعرابية لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "في السماء!" فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - لصاحبه: "أعتقها فإنها مؤمنة!"⁽⁷⁹⁾ فلماذا لا يعتق هؤلاء الناس اليوم؟ لماذا لا يحرروهم من هذا الجدل البيزنطي العقيم؟ أم أن الجارية كانت تعرف "علم الكلام"؟ وتفرق بين التأويل والتعطيل والإثبات، وبين العلم والوهم؟ لماذا التفتيش العقدي المعقد؟ ولماذا الفتن؟ ولماذا البحث عن أمور هي عندهم هناك في المشرق، وما عندنا لها في المغرب من أثر؟ إن عموم المغاربة على العقيدة السلفية الفطرية السليمة. به لا دراسة ولا بحث في المذاهب والملل والنحل. إنهم على عقيدة القرآن وعقيدة السنة، يؤمنون بما جاء عن الله، بمراد الله، كما بلغ عنه رسول الله.

ومن الأخطاء المنهجية في هذا المجال أيضا اعتماد الحركة السلفية بالمغرب مقررات عقديّة ألفها حنابلة؛ لتصحيح العقائد لدى الناس. وقد كان كتاب "فتح المجيد" للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، مقررا دراسيا للحركة السلفية بالمغرب زمنا. لا يكادون يشتغلون بغيره، اللهم إلا ما كان من كتاب "العقيدة الواسطية"، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ثم كتاب "شرح العقيدة الطحاوية" للعلامة الألباني رحمه الله. وكلها كتب صحيحة مليحة. هذا أمر لا شك فيه ولا مرأ. لكنها إنما تصلح أن تكون مراجع خاصة لأهل العلم في أنه سهم، لا

⁷⁹ رواه مسلم.

مقررات دعوية لعامة الناس، في بلاد لها أهلها وعلماءؤها وظروفها الخاصة. لقد كان أولى بهم أن ينظروا إلى ما يشبه ذلك من المصنفات - أو ربما كان أحسن وأبين - في التراث العقدي المالكي. وكان أولى بهم أن يعتمدوا - مثلاً - كتاب "الإبانة في أصول الديانة" للإمام أبي الحسن الأشعري نفسه، وهو كتاب في العقيدة السلفية الأصلية - كما سبق بيانه - لا علاقة له بالعقيدة "الجوينية"، باعتراف علماء السلف والخلف، بما في ذلك علماء الحنابلة أنفسهم. وكذا كتاب "شرح عقيدة مالك الصغير" للقاضي عبد الوهاب البغدادي، على مقدمة "رسالة ابن أبي زيد القيرواني" ⁽⁸⁰⁾. وهي عقيدة سلفية واضحة، قد أشاد بها ابن تيمية - رحمه الله - واستشهد بنصوصها في غير ما موطن من فتاويه. ثم كتاب "النور المبين في بيان عقائد الدين" ⁽⁸¹⁾ لابن جزى الغرداوي رحمه الله، وكذا "مقدمته" العقديّة لكتاب "القوانين الفقهية". فكل ذلك عقيدة سلفية سليمة. وهي كتب تفضل الكتب الأخرى؛ بكونها ألفها علماء مُعْتَمَدُونَ عَقْدِيًّا وَمَذْهَبِيًّا من لدن المغاربة عبر التاريخ! فهي

⁸⁰ وقد شرحها أخونا الداعية: الأستاذ الوزاني برادعي شرحاً مفيداً جداً، سماه: "الشرح والدلالة على مقدمة الرسالة". صدرت طبعته الأولى بفاس. مطبعة أنفوبرانت.

⁸¹ حققها الأستاذ خالد الحسني الوزاني ضمن رسالة له؛ لنيل "دبلوم الدراسات العليا" في الدراسات الإسلامية، نوقشت بكلية الآداب بالرباط، في السنة الجامعية: 1995/1996م.

علم مُسْتَنْبَتٌ غير مستورد! وفي ذلك ما فيه من الحكمية الدعوية والقوة الحجاجية.

والأخطر من هذا وذاك أن أغلب من تتلمذ على متأخري زعماء السلفية إنما هم العوام وأشباه العوام. وما تخرَّج عليهم من طلبة العلم إلا قليل؛ فنتج عن ذلك - بعد فترة "الانفجار العظيم" وانطلاق دوح الفتن من ركابه - أن تصدر المجالس جيلٌ من الجهال، يقودون حركة الانشقاقات! ويمسخون السلفية الأصلية إلى "ملفيات"! فأصد مدروا الفتاوى والبلاوى! وإنما أغلبهم من الفاشلين دراسيا، المطرودين من المدارس في وقت مبكر من أعمارهم، والعاجزين حتى عن طلب العلم الشرعي في مدارس التعليم العتيق! فصار منهم من تسمَّى "شيخا" ومن تسمَّى "زعيمًا"! وإنك لتجد أحدهم يكاد يقبض بأصابعه على أطراف شفاهه؛ لتقويم كلامه وبيانه؛ عسى أن يسلم له نطق لسانه، ولكن دون جدوى، تنكسر دون مراده الكلمات، وتنحرف في فمه العبارات! ثم يجادل - بعد ذلك - في حجة الحديث، ومراتب الإجماع، وأنواع القياس! ويجهل هذا العالم ويُدَّعُ ذلك!

ومن هنا؛ ومؤثرات سياسية من جهة ومات شبهة - داخلية وخارجية - تكونت "السلفية القتالية"! - ولا أقول: "الجهادية"⁽⁸²⁾ -

⁸² مصطلح "الجهاد" مفهوم تعبدى نظيف، ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في سياق تزكية النفس؛ بإفنائها في ذات الله، بدءاً بمقامات

فتناسلت عقاربها في كل مكان! لقد كانت بيئة التفتة يش العَقْدَ مَدِيٍّ، والمنهج الحرفاني - ذي الأصول الحنبلية - في فهم الكتاب والسنة، بالإضافة إلى النفسية المرضية التي تعاني منها الفئات الاجتماعية المهمشة، وكذا الظلم السياسي العالمي للمسلمين في كل مكان؛ كل ذلك وما في معناه كان سببا في تفريخ العقليات "الخوارجية"⁸³، التي خرجت على المجتمع من تحت جبة التيار السلفي مع الأسف!

- الخطأ المنهجي الثالث: مواجهة التصوف بإطلاق

الإخلاص في أصغر الأمور وأدقها، وانتهاءً بمقام الاستشهاد في سبيل الله؛ إعراباً لكلمة الله. فهو إذن مصطلح كلي ثمولي لا يقبل التجزئ. وشتان شتان بين ما تستعمله اليوم وسائل الإعلام المغرضة، والجماعات الضالة؛ من دلالة منحرفة لهذا المصطلح وبين حقيقته القرآنية السامية ومفهومه العظيم في الإسلام!

⁸³ الأصل في النسبة أن تكون للمفرد، كما تقتضيه القاعدة النحوية، لكننا آثرنا هنا جعلها للجمع؛ رفعا للبس في دلالة المصطلح.

ثم دخلوا في مواجهة التصوف مطلقاً⁸⁴، بلا تمييز بين أشكاليه ومسالكه، ولا بين صالحيه وفجاريه! وما تكلم ابن تيمية نفسه - وهو نقادة التصوف - عن كثير من المتصوفة المشهورين إلا بخيراً! وما ذكر

⁸⁴ قد تُحَرَّج بعضهم من استعمال مصطلح (التصوف) و(الصوفية)؛ للدلالة على منهج السلوك الروحي، وعلم السير إلى الله - جل وعلا - عبر مقامات الإيمان؛ بسبب ما لازم اللفظ من إحالات على أهل الزندقة من القائلين بالانحراف والحلول، وغير ذلك من المقولات الفلسفية والشطحات الشيطانية! واستعملوا بدل مصطلح (التصوف) مصطلح (الزهد)، وهذا إنما هو "مذنب" واحد ضمن عشرات المنازل التي رتبها القوم في منهج السير إلى الله، كالنوبة، والإنابة، والإرادة، والفقر، والزهد، والتوكل، والإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبة... إلخ. فهو إذن لفظ غير جامع للمقصود. والحقيقة أن (التصوف) مصطلح تضمن الصلاح والفساد، والخير والشر، ككثير من الاصطلاحات العلمية الحادثة في التاريخ الإسلامي. مثل مصطلح "الأصول"، ومصطلح "العقيدة" ومصطلح "التوحيد"... إلخ. فكلها مفاهيم ذات دلالات تختلف - على حسب مذاهب أصحابها - بين الصلاح والفساد، وما خلا شيء منها قط من انحراف. ثم إنه ما كان لفساد شرذمة مندمسة في القوم أن يلغي مصطلحاً من الاستعمال الإيجازي، وإلا ألغينا - بنفس الاعتبار - كثيراً من المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي! وقدما قيل: "لكل مذهب سفهاؤه". وقد استعمل الإمام ابن تيمية - رحمه الله - مصطلح (التصوف) بصورة إيجابية في بعض المواطن من فتاواه، كما ستراه بنصبه أعلاه، وكذا تلميذه ابن القيم في كل كتابه (مدارج السالكين)، ولم يجد أحدهما في ذلك أدنى حرج.

الشيخ عبد القادر الجيلاني في فتاويه إلا أعقب ذكره - في الغالب - بقوله: "قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ!" وقد نقل عنه في علم السلوك عدة نصوص⁸⁵). وما تخرج تلميذه ابن القيم من شرح كتاب "من مازل السائرين" لشيخ صوفية الحنابلة، الإمام أبي عبد الله الهروي الأنصاري، وما كان يصفه إلا بلقب "شيخ الإسلام!"

وقد رتب ابن تيمية - رحمه الله - في ذلك ترتيباً عجيباً؛ فجاء بحكم وموازين حقها أن تُكتب بماء الذهب! ولو أخذ بما حنابلة العصر لكانوا أعدل وأقوم! قال رحمه الله: (أفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون، كما قال الله تعالى: "فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا". النساء: 69). ولهذا ليس عندهم [يعني الصوفية] بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة، على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال "صديقو العلماء"، و"صديقو الأمراء"، فهو أخص من "الصديق المطلق"، ودون "الصديق الكامل الصديقيّة"، من الصحابة والتابعين وتابعيهم. فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين إنهم "صديقون"، فهو كما يقال عن

⁸⁵ مجموع فتاوى ابن تيمية 8/306. وكذلك: 10/458، وكذلك: 10/470، وكذلك: 10/490، ونحو ذلك كثير.

أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صِدِّيقُونَ أيضاً، كُلٌّ بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله، بحسب اجتهاده. وقد يكونون من أَجَلِّ الصَّدِّيقِينَ بحسب زمامهم، فهم من أكمل صِدِّيقِي زمانهم. و الصَّدِّيقُ في العصر الأول أكمل منهم. والصَّدِّيقُونَ درجاتٌ وأَنْوَاعٌ. ولهذا يوجد لكلٍّ منهم صنفٌ من الأحوال والعبادات، حَقَّقَهُ وأَحْكَمَهُ، وغلب عليه، وإن كان غيرُهُ في غير ذلك الصنف أكمل منه وأَفْضَلُ منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه؛ تَنَازَعَ الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقد مالوا إلَيْهِم مَبْتَدِعُونَ خارجون عن السنة! ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائفٌ من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلبت فيهم وادعوا أَنَّهُم أَفْضَلُ الخلق، وأَكْمَلُهُمْ بَعْدَ الأنبياء! وكلا طريقي هذه الأمور ذميم. والصواب أَنَّهُمْ مَحْتَجُونَ في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله. ففيهم السابق المقَرَّبُ بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. وفي كل من الصنفين مَنْ قد يَجْتَهِدُ فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه.

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن من عند المَحْتَقِينَ من أهل التصوف ليسوا منهم. كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق، مثل الجنيد بن محمد. مدسه بيد

الطائفة، وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في "طبقات الصوفية"، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في "تاريخ بغداد".

فهذا أصل التصوف. ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: "صوفية الحقائق"، و"صوفية الأرزاق"، و"صوفية الرسم". فأما "صوفية الحقائق": فهم الذين وصفناهم. وأما "صوفية الأرزاق": فهم الذين وقفت عليهم الوقوف، كَالْخَوَانِكِ⁸⁶، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا عزيز. وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك. ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

أحدها: العدالة الشرعية، بحيث يؤدون الفرائض ويحتنبون الحرام. والثاني: التأدب بآداب أهل الطريق، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها. والثالث: ألا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا. فأما من كان جماعا للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق الحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو

⁸⁶ الْخَوَانِكُ: جمع "خَانِكَاة" وهو لفظ فارسي، معناه: البيت. وَالْخَوَانِكُ:

نوع من الزواني أو التكايا والرباطات، حدثت في الإسلام خلال القرن الرابع الهجري، وجعلت للصوفية خاصة، يتفرغون فيها لعبادة الله تعالى بالصلوات والأذكار. ولذلك يُرْتَبُ لهم فيها الطعام واللحم والخبز.

كان فاسقاً؛ فإنه لا يستحق ذلك. وأما "صوفية الرس" فهو هم المقتصرون على النسبة. فَهَمُّهُمْ في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك. فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زينة أهل العلم، وأهل الجهاد، ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم!)⁽⁸⁷⁾

وأما فيما يخص شطحات القوم فإن الإمام ابن القيم - رحمه الله - قد نصب لذلك ميزانا ذهبيا، يُحَقِّقُ الْحَقَّ وَيُطِيلُ الْبَاطِلَ، جاء في نصه بديع تشد إلى مثله الرجال! وظفناه غير ما مرة في كتبنا؛ لبيان هذه الحقيقة التي عمي عنها كثير من مدعي السلفية في هذا الزمان. وهو قول الله - رحمه الله: (هذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس! إحداهما: حُجِبَتْ بِمَا عَنْ مَحَاسِنِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَلَطَفَ نَفُوسَهُمْ، وَصَدَّقَ مَعَامِلَتَهُمْ، فَأَهْدَرُوا لَأَجْلِ هَذِهِ الشَّطْحَاتِ، وَأَنْكَرُوا غَايَةَ الْإِنْكَسَارِ، وَأَسَاءُوا الظَّنَّ بِهِنَّ مُطْلَقًا! وهذا عدوان وإسراف! فلو كان كل من أخطأ، أو غلط، تُرِكَ جَمَلُهُ، وَأُهِمَّتْ مَحَاسِنُهُ؛ لَفِي سَدَّتِ الْعُلُومَ وَالصَّنَاعَاتِ وَالْحُكْمَ، وَتَعَطَّلَتْ مَعَالِمُهَا!

والطائفة الثانية: حُجِبُوا بِمَا رَأَوْهُ مِنْ مَحَاسِنِ الْقَوْمِ، وَصَدَّقُوا قُلُوبَهُمْ، وَصَحَّحُوا عِزَائِمَهُمْ، وَحَسَّنُوا مَعَامِلَتَهُمْ عَنْ رُؤْيَا شَطْحَاتِهِمْ،

⁸⁷ مجموع فتاوى ابن تيمية: 20-17/11، نشر دار عالم الكتب،

ونقصها، فسحبوا عليها ذيل الخاسن، وأجروا حكم القبول والانتصار لها. واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضا معندون مفرطون. والطائفة الثالثة: - وهم أهل الإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي من زلة من زلته! (88)

هذا بالإضافة إلى حقيقة تاريخية أخرى، أدت الالة تهانة بما إلى فشل المشروع السلفي. وهي أن المغرب بلد صوفي بامتياز! فالتدين الشعبي فيه إنما شكلته من الناحية التاريخية المدارس الصوفية منذ القديم. ولذلك ما أسرع أن تنجح فيه المبادرات الصوفية، فتتمكن من الانتشار والاستيعاب للمريدين؛ بمجرد ظهور أحد الأشياخ المتمكنين من الإقناع والإشباع الروحيين، سواء كان على حق أم كان على باطل. فتلك قضية أخرى. فإنما حديثنا هنا عن طبيعة اجتماعية دينية لدى المغاربة. ولذلك كثيرا ما اصطدمت دعوات الفكر السلفي بصخرة الطرقة الصوفية على المستويين الرسمي والشعبي، فارتدت مشاريعها خاسرة. والحكمة تقتضي من الدعاة تقديم بديل متوازن ينفي عن الدين - بعلم وبحكمة - غلو بعض الطرق الصوفية، وانحرافها عن الدين الخالص إلى متاهات الخرافة والدجل. وذلك بإنصاح خطاب رباني ندي، تغلب فيه طراوة الروح ونداء الإيمان على لائحة أحكام الحلال والحرام ومنطق الاتهام. وإنما الحكيم هو من يسوق الأحكام الشرعية مساقا تربويا

ربانيا، على هدي السنة والمنهاج التربوي النبوي الحق، لا م ساقا
عقاييا سبائياً! فيكسب قلوب الناس أولاً، ثم يكسب سلامة دينهم من
الخرافات والبدع ثانياً. ولكن كثيراً من الدعاة - مع الأسف - عن
هذا عمون. ذلك، وإنما الموفق من وفقه الله.

- الخطأ المنهجي الرابع: تضخم الشكلانية المظهرية

حيث صار المظهر الخارجي هو المقياس الأساس لسلامة الدين لدى
كثير منهم. وغدا إعفاء اللحية وتقصير الثوب بالخصوص هو المقياس
الأساس للالتزام بالدين! نعم لا شك أن ذلك من أهم سمات الهيآت
الدينية والمظاهر التعبدية في الإسلام. لا ننقصها شيئاً من أحكامها ولا
نصوصها مما شرعه الله ورسوله. ولكن بعض التيارات السلفية ضخمتها
كثيراً، وأعطته من الرعاية الدعوية أكثر من حجمه! حتى كاد أن يصير
هو أساس "الولاء والبراء" لدى بعضهم! بل لقد صار...! وما كان
ينبغي أن يصير، خاصة في بيئة "حليقة"، تعربت عاداتها وأذواقها
وأفكارها منذ حوالي قرن من الزمان! ونحن لا نمنع أن يدعو المصلحون
إلى سنة مندوبة أو واجبة، ولكننا نعيب تضخيمها إلى درجة أن يحل
الفرع محل الأصل! فيحصل تشوه الدين في الفكر والممارسة.

ولقد شهدت بيئة تضخمت فيها الدعوة إلى سنن فرعية على
حساب أحكام أصلية، فنبت فيها جيل يتخرج من حلق لحية أو
قصها، ولكنه لا يتخرج أبداً من أكل أموال الناس بالباطل! وأكمل
السحت والتعامل بالربا مثلاً! وليس معنى هذا أننا ندعو الناس إلى حلق

لحاهم، كلا وحاشا! وإنما القصد وضع كل حكم في موضعه الذي وضعه الله فيه. وعدم الغلو في توضييم المظاهر على حساب الأحكام الكلية الكبرى، من أمور الحقائق الإيمانية، وأصول العبادات والأخلاق الإسلامية الكبرى، وأمهاات الفضائل، وأمهاات الرذائل، والتربية على ذلك كله تحليةً وتحليةً. وأن نقبل من الناس تدينهم - في زمانٍ لأن فيه الدين كثيراً - على سبيل التدرج، الأولي فالأولى، وأن نأخذهم بالرفق على منهج الكتاب والسنة في ترتيب حقائق التشريع تعليمًا وتركياً.

وإنما حدث هذا الاستصنام الشكلاي للمظاهر؛ بسبب اعتمادهما الرؤية التحزبية للشريعة، وانعدام الفقه الإسلامي لمقاصد هذه العلوم ومراتبها الدلالية والاستدلالية؛ مما نتج عنه ضرب من الظاهرية الفقهية، واعتماد الشكلاية في التدين، واللاوطنية في اللباس؛ تقليداً للمشاركة، عرباً وعجماً، فصار اللباس الأفغاني موضة التدين بين فريق من الناس زماناً، ثم صار اللباس الخليجي هو الغالب بعد ذلك. وخاصة أشه كال التنقيب لبعض النساء! اللائي صرن يتصرفن بطريقة الخليجية مات في التحجب. وكان أولى بمن - لو صدقن في تدينهن حقاً - أن يتنقبن - إن كان ولا بد - بطريقة المغربيات الأصيلات، كما كان الأمر عندنا لدى الجدات والأمهاات في السابق. والجلباب النسوي المغربي الأصيل أَسْتَرٌ وَأَوْقَرُ، لو كانوا يعلمون! ولكن لعن الله الأهواء! فالشيطان يزين لكثير منهن التعمق في الإغراب والغلو في الاختلاف!

وليس بعض الشباب قمصانا ذات هيئة باكستانية، أو خليجية، وأعرضوا عن القمصان المغربية والجلابيب المغربية، كأنما هذه لا تستر عورة ولا تقي بسنة! ثم أطالوا لحاهم بصورة مزعجة ومقرفة؛ حتى إنك لتجد أحدهم أحيانا قد ملأت لحيتُه كلَّ وجهه، وغطت كلَّ صدره! بلا تهذيب ولا تشذيب! رغم أن العلامة الألباني - رحمه الله - قد قال ببدعية ما دون القبضة من اللحية! ووجوب قص ما طال منها! وهو قول قديم لبعض أهل العلم كالإمام الطبري وغيره⁽⁸⁹⁾. وهو ثابت من عمل عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهما، وهم ما من رواية أحاديث الإعفاء؛ بما يدل على أن المقصود منها إنما هو ما يبيِّن مَناء بعملهما من قص ما دون القبضة. وهو الذي عليه جمهور كثير من التابعين وفقهاء الأمصار. وقد كان الشيخ الألباني - رحمه الله - دقيق الاستدلال، عميق الاستنباط، في محاورته بينه وبين الشيخ أبي إسحاق الحويني المصري؛ حيث بيَّن بما يشبه القطع أن ذلك كان عمل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه يقول إلى أن يكون من السنة التقريرية⁽⁹⁰⁾.

⁸⁹ الإنصاف فيما جاء في حكم الأخذ من اللحية من الخلاف، للشيخ

ديان محمد الديان.

⁹⁰ محاورته صوتية مسجلة، وهي معروضة في كثير من المواقع الإسلامية

بالإنترنت.

وليس كل اللحي يطول خلقةً، بل منها ما يطول ومنه ما لا يطول، بل ينمو بشكل معتدل، والله في خلقه شؤرون. سبحانه وتعالى. وقد رأيت مرة رجلاً صغير الوجه قد أطال لحيته بشكل فظيع فمادح؛ حتى صارت أضعاف مساحة وجهه طولاً وعرضاً! ما رآه أحد إلا فرع! وقد كان معجباً بلحيته! منبهراً بطولها وانتشارها غير العادي، ولا يدري الأحق أنه بذلك أبعد ما يكون عن السنة وجمالها! وقد أطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاء مدة التحم لم في المظهر للمسلمين، فقال قولته المشهورة: (إن الله جميل يحب الجمال!)⁹¹. وتالله إن اللحي الفادحة الحجم، لا تزيد المرء إلا قبحاً! فحاشى ما أن يكون مثل ذلك من الدين! وقد غرهم ما روي من "كثافة" لحي بعض الصحابة. وذلك كله خارج عن محل النزاع إذ "الكثافة" لا علاقة لها بمعنى الطول. فقد تكون كثيفة لكنها مشدبة مهذبة، على قدر ما تحسُن به هيئة الوجه، كما قرره الفقهاء منذ القديم. وكل أحاديث الإعفاء مقيدة بعمل الصحابة؛ لأنها سنة ذات هيئة. ومعلوم أن السنن ذات الهيآت لا يقيدنها ولا يبينها إلا العمل! وعلى هذا أغلب فقهاء

⁹¹ رواه مسلم.

الأمصار. وقد كتب بعض العلماء في ذلك بحثاً كافية شافية؛ لمن أراد التفصيل⁽⁹²⁾. والله المستعان.

وزاد حرقانية الفهم للدين وتجزئته الشكلائي غُلُوءاً أن من اتته سبب للعلم منهم قد تخرج من معاهد كانت تعاني أصلاً من انحلال في مناهج التعليم، وعدم توازنها؛ بإغفالها لتدريس علم أصول الفقه وقواعده، ومقاصد الشريعة ومراتبها، وقواعد اللغة العربية وبيانها، وعلم الخلاف العالي وأنواع المذاهب؛ مما نتج عنه ضياع الأفق العلمي للمتخرجين، وانحصارهم في دائرة التقليد لما تلقنوه، دون القدرة على محاولة معرفة أدلة الآخرين، بله محاولة الاجتهاد والتجديد!

وبسبب التعصب المذهبي الكامن في مثل هذه العقليات، نبت منهم قوم لا يتورعون في الرد على مخالفيهم من الإسلاميين بالشتيم واللعن والسباب، والتعبير بأبداً العبارات والألفاظ، مما تمجحه الأذان المؤمنة، وتكرهه العقول السليمة. ولم يكن ذلك عندهم مقصوداً على نقد الإسلاميين الحركيين فحسب؛ بل هو شامل لكل مخالف أنى كان! ولو ممن هو منهم! أي ممن رفع شعار السلفية قولاً وعملاً. حتى ألواهم أنفسهم - في نهاية المطاف - إلى التشرذم الفرقي، والتحزب الأهوائي،

⁹² ن. "الإنصاف فيما جاء في حكم الأخذ من الحق من الخلاف"، للشيخ

ديان محمد الديان. وكذا فتوى مفصلة بأدلتها في هذا الشأن للشيخ سلمان بن فهد العودة، معروضة بالإنترنت.

ووقعوا فيما عابوه على الإسلاميين الحركيين! وتكونت "جماعات" مصغرة بشكل "ميكروسكوبي"، تلتف حول بعض الأنصاب البشرية، ذات الـ زعة "الشخصانية"، أو "البترو دولارية". فسهل بذلك - وقد استحكمت الأهواء من الأنفس - التورط في الاستجابة للتوظيفات "المخابراتية" المختلفة، والدخول الآثم في الاصطدام "الموظف" ضد الحركات الإسلامية، ثم ضد ثوابت الوطن الدينية، فقه ما وسد لوكاً؛ لأغراض سياسية يجني ثمارها قومٌ يترصدون بالدين وأهل به الدوائر. فكانت عقارب السلفيين بذلك أشد وأنكى من غيرها! والله المستعان. وقد كان حرياً بزعماء السلفية بالمغرب أن ينخرطوا في مشروع التصحيح - لو كانوا حكماء عقلاء - من خلال مقولة ابن عاشر المشهورة:

فِي عَقْدِ الْأَشْعَرِيِّ وَفَقْهِ مَالِكٍ *** وَفِي طَرِيقَةِ الْجُنَيْدِ السَّالِكِ
ولهم في الأشعرية الأصيلة دون "الجوينية" المحدثه خير مجال لعرض عقيدة أهل السنة والجماعة الصحيحة السليمة. كما أن لهم في أصل قول مالك وقواعده الاستنباطية ما يساعدهم على تصحيح التدين عقيدة وعبادة، وإرجاع ما انخرط من ذلك إلى أصله من الكتاب والسنة. ولهم في ذلك سلفٌ عظيم، من أمثال ابن عبد البر والإمام الشاطبي وغيرهما كثير، كما أشرنا إليه آنفاً.

ثم لهم في مفهوم "التصوف السني" المجال الأوسع والأرحب؛ لرد كل سلوك في هذا الشأن إلى ما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - وصحابته الكرام، ثم مشاهير الزهاد والعباد من التابعين وأتباعهم، ممن أجمعت الأمة على فضلهم، كالإمام الجنيدي، شيخ القوم وإمامهم. ولهم خير مرجع وطني تاريخي، في الحركة الإسلامية بالاحية الصوفية، التي بدأها الشاطبي بالأندلس، واسه تأنفها أحمد مد زروق بالمغرب، وكذلك أبو عبد الله المالقي الساحلي؛ لرد الله صوف إلى أصوله، وتصفيته من علاته وشطحاته، وضبط مقولاته بضابط الشريعة، وإنارة مسلكه بنور العلم. كل ذلك من داخل بنيته وكيانه، ومن خلال مدارسه ورجاله؛ بتسليط حقه على باطله، وضرب دجاجلته بأوليائه! فتستبين طريقُ الصلاح بإذن الله، بلا ضجيج ولا عجيح. وإذن يكون رجال السلفية بذلك - كما كان الإمام الشاطبي قديما، وهو الفقيه المالكي المجدد للفقه والتصوف - مصلحين للبلاد والعباد، من الداخل لا من الخارج! ويكونون أفقّة لأحوال الناس، وأدرى بطبيعة أدوائهم. فيتّنه نزل الدواء على قدرِّ الداء. وتلك هي عين الحكمة. ولا بركة في عملٍ أخطأته الحكمة. وتجارُبهم الفاشلة في هذا السياق خير دليل!

إن مثلاً تجربة "السلفية" - في مرحلتها الأخيرة - كمثّل فتيّة ورثوا عن أبيهم من زلا قديما في صحراء موحشة، فلم يزالوا يسكنونه وإن اخدمت أغلب مرافقه الداخلية، إلا سوره الخارجي وبابه؛ حتى لم تعد له من فائدة سوى أنه لم يزل يحميهم من عوادي السباع والضباع. فأصروا على هدم البيت؛ لإعادة بنائه من جديد على أصله الأولي، تماما كما كان من قبلُ بكمال مرافقه. ولما هدموه، وقعوا في خلاف

شديد حول تصميمه الأصيل كيف كان! ولا اجتمعوا في ذلك على رأي واحد! حتى فاجأهم السباع والوحوش الضواري! وهم لا يزالون يتجادلون في العراء! فافترست بعضهم، وشردت بعضهم في الفلوات والقفار، فلم يزل تائها بلا دار ولا ما يشبه الدار!

– الخطأ المنهجي الخامس: الارتباط المادي المـ شروط بعض

الدول المشرقية

والسبب الرئيس في اصطباغ السلفية الدخيلة بالمذهبية الحنبلية – لدى بعضهم – إنما هو الارتباط المادي بدول الخليج! وأنا أزعـم أنه لولا "البتروـل" لما كان للحنبلية – في ثوبها الجديد – كل هذا التأثير على كثير من دول العالم الإسلامي! الشيء الذي دفع بعض الانتهازيين إلى تصدر قيادة التيار السلفي أو الانتماء إليه على الأقل؛ طمعا في الحصول على دعم مادي يخرجـه من الفقر إلى الغنى، أو منحة دراسية بالمشرق تفتح له الآفاق، أو منصب "داعية" بالخارج يتقاضى عليه أجرة شهرية منهم، أو نحو هذا وذاك.

ونحن لا ننكر – من حيث المبدأ – أن تساعد بعض الدول الغنية الدعوة إلى الله في غير بلادها، وأن تنفق على العمل الإسلامي والعمل الخيري هنا وهناك، بل هذا من أفضل أسباب تقوية التواصل بين أعضاء الجسم الإسلامي الكبير. لكن المشكل إنما هو الدعم المادي المـ شروط كما وصفناه أعلاه. أعني أن تمتد إليك يد المساعدة بشرط أن تكون حنبليا أو أن تكون شيعيا! هذا هو الإشكال. وهو من أبرز الأخطاء

المنهجية التي أربكت العمل السلفي، إذ وجد بعض زعمائه أنفسهم كالمضطربين للدعاية لمذاهب أخرى، غير ما استقر عليه العموم بل في بلده؛ فاستظهر كثير منهم دروس "التوحيد" وأضاع دروس الإخلاص! ودرّس أصول "العقيدة" وفقد أصول الإيمان! مما أدى ببعضهم من غلقت دونه الأبواب - لأسباب تنافسية - إلى ردفعه بل نفسه سي تكفيري، فصار يلعب سلفية "البترو دولار" كما سماها، وأنشأ "سلفية" أخرى ذات خلفية "خارجية"⁹³، ومنهج تكفيري قتالي! فانضم إليه كل من يعيش منهم مأساة التهميش الاقتصادي والإقصاء الاجتماعي. وأسسوا خطاباً "خارجياً"، ذا خلفية انتقامية من الناحية اللائحة معوية. وقد انعقد ذات مرة في بعض الأحياء المهمشة من بعض المدن المغربية مجلس للحوار بينه وبين ممثل جماعة إسلامية أخرى، فلما بلغ الحوار بينهما الباب المسدود - بسبب تباين الأفكار والمنطلقات - قال له صاحبه وهو يحاوره: "بيننا وبينكم كتاب الله"، فرد عليه الزعيم السلفي القتالي بحدة: "بيننا وبينكم الكلاشينكوف!" كذا..!

وما كان لمثل هذه الأمراض أن تظهر بالصف الإسلامي السلفي لو التزم بمذهبيته المالكية، وفك ارتباطه بالدعم المادي الخليجي؛ ولو فع بل لجاء بسلفية تصحيحية فعلاً، تعالج الغلو والانحراف في العقائد والعبادات، تماماً كما كان شأنها في المغرب عبر التاريخ؛ وذلك لما

⁹³ نسبة إلى فرقة "الخوارج" الذين يكفرون مرتكب الكبيرة.

للمذهب المالكي من قدرة استيعابية لكل وجوه الخلاف، وقدرة فريدة على التعايش مع سائر الاجتهادات، بعيدا عن منطق التبذيع والتكفير؛ لأبسط الأشياء ولو كانت اجتهادية محضة! ولما لأصولة الفقهية وقواعده الاستدلالية من مرونة قلما تجدها في مذهب آخر، به نفس السعة والشمول.

وأخيرا، فتلك أهم الأخطاء المنهجية الاستصنامية، الأصولية والفرعية، التي استقريناها من مقولات العمدة الإسلامية بالأمم والمغرب وتطوراته التاريخية، حركة إسلامية، وتياراً سلفياً. ذكرناها بهذا التقييد موجزة؛ عسى أن ينفع الله بها من كان مثلي من الغافلين! و(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق: 37). كذلك الأمر كان، والله المستعان.

خاتمة

وبعد،

ألم يان للحركة الإسلامية أن تتوب إلى ربها؟ وتُمسك بكتابه؟
فتحطم أصنامها، وتكسر أغلالها! وتسلك مسلك التلاوة للكتاب،
وتلقّي التزكية من منازل الخوف والرجاء، ومقامات الافتقار إلى الملك
الوهاب. ثم تشرع في فتح طريق التعلم والتعليم للكتاب والسنة؛ عسى
أن تشملها الرحمة، وتنطق بالحكمة، ويسلك بها الرحمن مسلك التسديد
والتأييد.

فهل تعود الحركات الإسلامية إلى إخلاصها التبعي؟ وإلى
صلاحها المنهاجي وانتشارها الدعوي؟ وهل يعود خطابها إلى حمى
رسالة القرآن، وأخلاق القرآن؟ وأولويات القرآن؟ ثم هل تعود
التيارات السلفية إلى "سلفيتها"؟ وإلى إخلاص دينها، والتعريف بربها؟
وترك شقاقها ونفاقها؟ ثم هل يعود التصوف إلى روائه؟ وجمال صفائه؟
وترك غلوائه وشطحاته؟ وتصحيح منازل وأحواله؟ وعرض كل ذلك
على قواعد العلم وموازن الكتاب والسنة؟

فالشريعة الشريعة! يا أبناء الحركات الإسلامية! ويا رواد التيارات الدينية، قبل أن يتفلسف ما بقي من الدين بين أيديكم؛ فلا يبقى لكم من الخير شيء! ونعوذ بالله أن يكون مثل أعمالنا (كَ سَرَابٍ بَقِيَعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ! وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ). (النور: 39) ويا لحظ أمرئ رضى به الله عبداً، ونالته ولايته؛ ففتح به وله!

ذلك، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ). (الحشر: 7-10).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله، وسلم تسليماً كثيراً.
وكتبه - بمكناسة الزيتون، من حواضر المغرب الأقصى - عبد ربه،
راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمة ورضوانه: فريد بن الحسن
الأنصاري الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين. وقد

وافق تمام تصنيفه في مسودته الأولى يوم الجمعة: 20 ربيع الثاني: 1427 هـ، الموافق لـ: 2006/10/13م.

..... ينتهي.

الفهية . . مرس

5	مقدمة
16	تمهيد مد: الحركة الإسلامية بالمغرب وقضية "الاستصنام المنهجي"!
21	الباب الأول : الأخطاء المنهجية الكبرى للحركة الإسلامية بالمغرب
22	الفصل الأول: استصنام الخيار الحزبي
32	- على مستوى الفهم التصوري للدين
34	- على المستوى التربوي والدعوي
35	- على مستوى الأمانة الأخلاقية
41	الفصل الثاني: استصنام الخيار النقابي
42	الصنم "الأوطمي" واتهام الأخطار في الصف الإسلامي
60	الفصل الثالث: استصنام "الشخصانية المزاجية" في الحركة الإسلامية
75	الفصل الرابع: استصنام التنظيم "الميكانيكي"
76	- استصنام "الأنا" الجماعي
77	- استصنام الهوى الديمقراطي
	الفصل الخامس: استصنام العقلية "المطيعية" وإفشال الوحدة التاريخية للحركة الإسلامية
83	

الباب الثاني: استصنام "المذهبية الحنبلية" في التيار السلفي.....

116

الفصل الأول: تمهيد تاريخي 117

الفصل الثاني: استيراد المذهبية الحنبلية باسم "الكتاب والسنة"..... 128

الفصل الثالث: الأخطاء المنهجية للتيار السلفي في تدبير الشأن الدعوي

بالمغرب 141

- الخطأ المنهجي الأول: الإعراض عن المذهب المالكي واختلال ميزان

الأولويات 141

- الخطأ المنهجي الثاني: الغلو في التحقيقات العقدية 151

- الخطأ المنهجي الثالث: مواجهة التصوف بإطلاق 157

- الخطأ المنهجي الرابع: تضخم الشكلائية المظهرية 163

- الخطأ المنهجي الخامس: الارتباط المادي المشروط ببعض الدول

المشرقية 170

خاتمة 174